



مصطفى المنفلوطي

وروائع كتاب النظرات

سامر محي الدين حشيمة



مصطفى المنفلوطي

وروائع كتاب النظرات

مصطفى المنفلوطي

وروائع كتاب النظرات

اعتنى به ووضع حواشيه
سامر محي الدين أمين حشيمة

الطبعة الأولى

2016م



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2016/2/520)

811.5

حشيمة ، سامر محي الدين
مصطفى المنفلوطي وروائع كتاب النظرات/
سامر محي الدين حشيمة.- عمان : دار خالد اللحياني للنشر والتوزيع ، 2015
() ص .

ر.ا. : 2016/2/520 .

الواصفات : /الأدب العربي/ العصر الحديث

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر .



دار خالد اللحياني للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - مكة
ص. ب 21402
الرمز البريدي 21955
هاتف: 00966555008626
البريد الإلكتروني:
shs1427@gmail.com

مكتبة ملاك - عمان- الأردن
Amman, Jordan
Tel : +0797492021

الإهداء

إلى ابنتي العزيزة: ملاك

أهدي هذا الكتاب

والدك

سامر حشيمة

فهرس الكتاب

9.....المقدمة

13.....الباب الأول مصطفى المنفلوطي

15.....حياته

19.....وفاته

19.....مؤلفاته

21.....روائع من مؤلفات - النظرات -

المقدمة

إنك حينما تعرف الشهد من الخل، فسوف تستطيع في النهاية أن تفرّق بين مذاقهما في الحلق، فليرزقك الله أيضاً في ذلك اليوم، ما يجعل نصيحتي نوراً لقلبك، واعلم أن العاقل في هذه الدُّنيا من تعلق قلبه بالحقيقة، وأصغى بأذنه إلى النصيحة، أما القلب والأذن اللذان فقدتا التمييز، فإنهما للبغال والحمير، وحينما يهمس الشخص في أذن صماء بسر، فإنه يذيعه في كل الآخرين، وعليك برعاية صدرك بالتضرع كي يكون نقياً، وكمك من الطهارة ندياً، ولا تتخذ من السفهاء رفاقاً لك، واطرق دائماً باب العفة، وكن ضارباً بالقوس في صفوف المصلحين، وفر من رفاق السوء فرار السهم من القوس، وتذكر بعقلك إحسان المنعم عليك، ولا تكن جاحداً للنعمة كالكافرين، ولا تزرع البذرة الخبيثة في الماء والطين، فإنها تثمر لك الندم في نهاية الأمر، وينبغي أن يكون لك في الدنيا وجه كالشمس، وأن تكون صادقاً كالفجر الصادق، فإن سواد الفجر الكاذب الذي يكون بغير ضياء، إنما هو عقابٌ على كذبه، ومن المحال أن ترى دليل الصدق في ذلك الشخص الذي تتملكه رغبة جمع المال، ولا يحظى بالصدق إلا من استطاع أن يتحرر من الحرص، فلا تجعل للأمل طريقاً حول قلبك .

إن من يصبر برغيف من الخبز سلطان، ومن يجري وراء الكنز شحاذ، والقلب المثقل بالأمل يحول دون السيادة، وليس هناك عرش أحسن من الرضا، كما أن الطمع من جميع النواحي يؤدي إلى اصفرار الوجه وعرق الجبين ليس إلا ماء وجه الآدمي، فحينما تقنع بالقليل ولا تطلب الزيادة ارفع العلم على قمة الدولة، فإنك ملك، ولا تؤرق نفسك من أجل العرش والتاج، فإن ساحة الأرض عرشك والفلك تاجك، وإذا ربطت أسنانك بالعفة، فلا تشحذها لأكل أموال الآخرين، وبسط مائدتك أمام الناس بغير ثمن، ولك لا تطلب الطعام من مائدة أحد بغير ثمن، لا تطلبن في الدنيا أكثر من حاجتك، ولكن إذا نلت شيئاً من غير سؤال فلا تردده، وحينما يطر سحاب السعادة عليك درراً، فكن متواضعاً كالغصن المثقل بالثمار، وخيرٌ لك أن تكون خادماً للناس وأنت في غنى عنهم، لأنك في الفقر ستكون خادمهم لا محالة، وتواضع، ولكن لمن هو أقل منك، إذ لا بد لك من التواضع مع من هو أعلى منك .

أردت أن تكون هذه مقدمة لهذا الكتاب الذي يحمل اسم " مصطفى المنفلوطي وروائع كتاب النظرات"، لمؤلفه الرائع مصطفى المنفلوطي، ولقد اخترت الكثير من تلك الروائع ووضعتها في هذا الكتاب وعلقت

عليها، وذلك ليظهر بصورة لائقة تعبّر عما يجول في خاطر هذا المؤلف الرائع بحق من

حكم ومواعظ وقصص، متمنياً من الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما قصدنا إليه .

سامر حشيمة

2015/10/14

الباب الأول

مصطفى المنفلوطي

أ- حياته:

ولد مصطفى لطفي المنفلوطي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط 1876-
1877م. ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه. ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة،
فحفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنّه، حيث توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية
قراة مائتي سنة، حيث كان والده قاضياً شرعياً لبلدته، ونقيباً لأشرافها، وزعيماً لأسرته
المعروفة بنسبها العريق الذي يعود إلى سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، ونشأة
المنفلوطي لا تختلف عن نشأة أقرانه من أولاد الريف المصريّ، فقد ذهب إلى الكتّاب
ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة وليحفظ القرآن الكريم ويستعد إلى الذهاب إلى الجامع
الأزهر منارة العلم وكعبة القصاد من طالبي المعرفة ومبتغى الثقافة في تلك الأيام.
ولقد تعرّض المنفلوطي وهو صبي لأحداثٍ جسام أثرت في حياته وكان لها أثر في وجدانه
وعاطفته. ولعلّ من أهم تلك الأحداث ذلك النزاع الذي نشب بين والديه، ولم تجد معه
تلك المحاولات التي بذلت لدأب ذلك الصدم وأدى الأمر إلى الطلاق، فذاق الصبي مرارة
البُعد وتجرع أفوايق الحسرة. ولقد زاده أسى ولوعه على الحزن والدمعة أن والدته بعد
أن بانّت من أبيه تزوجت من رجل غريب يقيم غير بعيد ويقطن في بلدتهم.

فمن المعروف أن من الآثار التربوية والاجتماعية الواقعة على أولاد المطلقين تتمثل في :

الحرمان العاطفي ونقص حنان أحد الأبوين . وهذا ما جعل المنفلوطي يتأثر به.

وقد تلقى المنفلوطي العلم بالأزهر الشريف، حيثُ أمضى عشر سنوات تلقى خلالها عن

مشايخه ثقافة علمية واسعة، فقد حفظ المنفلوطي وبفضل حبه للأدب والأدباء الأشعار

وتصيد الشوارد وصاغ القريض وأنشأ الرسائل، حيثُ انصرف إلى تحصيل ما أُتيح له منه ،

حيث كل ذلك أدى به بنهاية المطاف بشهره واسعة له في الأزهر، فقد كان يتميز

المنفلوطي بذكاء القريحة وروعة الأسلوب، فهذا كله قرّبه من الأستاذ (محمد عبده)،

وكان في أواخر سني حياته، فتتلمذ على يديه وتلقّى معظم الدروس الدينية والعلمية

التي يملئها الشيخ على طلابه، وكان من أكثر الطلاب تفوقاً، فأثره محمد عبده، وجعله

من أقرب تلاميذه، لا بل من أوفى أصدقائه، فقد رسم له محمد عبده الأساليب المثلى من

الحياة والأدب.

ثم يستفيد المنفلوطي من قرّبه من الإمام صلته (سعد باشا زغلول)، فقد كان هؤلاء

أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده.

وفي أثناء طلبه العلم في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديوي عباس

حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه

من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. وفي سنة 1907م هبّ بيتغي في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجاح رسائله الأدبية التي وفّرت له شهرة أدبية واسعة بفضل أسلوبها وبلاغة إنشائها. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف ثم عينه محرراً عربياً لها في سنة 1909م. ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا بوظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله.

وأحسن ما يعرفه له الناس في باب العقّة والشهامة أنّه ما أخذ في حياته أجراً على أدبه، ولا أنتفع من وراء قصائده أو رسائله بدانق (سدس الدرهم) أو سحتوت (النذر القليل). يعرف عن المنفلوطي الرزانة والوقار والأنفة والعزّة والبُعد عن سفاسف الأمور وصغائرها، والترفع عن مخالطة كلّ من لا تعجبه أخلاقه، ولا تجملُ في نظره أطواره.

وعن أخلاق المنفلوطي يقول الأديب الناقد حسن الزيّات في كتابه " تاريخ الأدب العربي": "إنه موتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر متّسق الأسلوب، منسجم الزيّ، لا تلمح في قوله ولا فعله شذوذ العبقرية، وكان صحيح الفهم في بطاء، سليم الفكر في جهد،

دقيق الحسّ في سكون، هبوب اللسان في تحفّظ . وهذه الخلال تُظهر صاحبها للناس في مظهر الغبيّ الجاهل، فهو لذلك كان يتّقي المجالس ويتجنّب الجدل ويكره الخطابة. وهو إلى ذلك رقيق القلب، عَفّ الضمير، سليم الصدر، صحيح العقيدة، موزّع العقل والفضل والهوى، بين أسرته، ووطنيّته، وإنسانيّته.

لاقت روايات المنفلوطي، وكتبه الأدبية شهرة واسعة في جميع الأقطار العربية، فطُبعت مرّات متعدّدة، وتهافت الناس من كلّ الأعمار والأجناس على قراءتها، لكن صاحبها لم يسلم من ألسنة النقاد وأقلامهم، ومن الذين انتقدوه حسن الزيّات الذي قال : إنّ هناك أمرين يمنعان من تحقيق صفة الخلود في المنفلوطي، هما ضعف الأداة وضيق الثقافة، إذ انقسم الناس حوله بين مؤيّد ومعارض .

إلى جانب هذا النقد الجارح، اتّفق مؤيّدوه على أنّ إنشاءه فريد في أسلوبه، وأنّ ما كتبه كان له الأثر الكبير في تهذيب الناشئة أخلاقاً، ولغة، وسلوكاً .

فهذا طه حسين يقول : إنه كان يترقّب اليوم الذي تُنشر فيه مقالات المنفلوطي الأسبوعيّة في جريدة " المؤيّد"، ليحجز نسخته منها، وكان يُقبل على قراءتها بكلّ شغف.

ب- وفاته:

توفي المنفلوطي سنة 1924م، وهو اليوم الذي جرت فيه محاولة اغتيال الزعيم سعد زغلول، والتي نجا فيها، ولكن أصيب بها بجروح بليغة، حيث انشغل الناس بحادثة محاولة اغتيال سعد زغلول، ولم يلتفتوا في موت المنفلوطي، وقد رثاه الشاعرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في وقت لاحق، وكذلك غيرهما من الشعراء من الأقطار العربية في العراق والشام ولبنان.

ج- مؤلفاته:

كتب المنفلوطي الكتب الآتية :

- 1- النظرات، الذي اخترنا منه روائع هذا الكتاب.
- 2- في سبيل التاج.
- 3- ما جدولين أو تحت ظلال الزيفون.
- 4- بول وفرجيني أو الفضيلة .
- 5- الشاعر أو سبرانودي برجراك.
- 6- العبرات.
- 7- أشعار ومنظومات رومانسيّة كتبها في بداية نشأته الأدبية.
- 8- مختارات المنفلوطي.

الباب الثاني

روائع من كتاب

- النظرات -

عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وسجاياه¹ التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية² ما يغنيه عن كل خارقة تأتية من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يبهز العرب من معجزات علمه وحلمه³ وصبره واحتماله⁴ وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه، أكثر ما كان يبهزهم من معجزات تسييح الحصى⁵ وانشقاق القمر، ومشى الشجر، ولين الحجر،

¹ السجية: الطبيعة والخلق. الجمع سجايا.

² الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة للإنسانية وأي قدوة. فهو أعظم قدوة للإنسانية كلها في تاريخها الطويل. ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام آية من آيات الله، حيث تجمعت فيه شخوص كثيرة مجتمعة في شخص واحد.

³ واجه النبي عليه الصلاة والسلام في بداية الدعوة حملات الإشاعات والتشكيك، فقد واجه منذ بداية الدعوة وطول الفترة الملكية بحملات الإشاعة والتشكيك، واستمر أعداء الدعوة الإسلامية في استخدام هذا السلاح في الفترة المدنية وتفننوا فيه. وكان الشعر من أهم الوسائل المستعملة في ترويح هذه المفتريات. ومما أطلقتها الجاهلية حول النبي صلى الله عليه وسلم من أكاذيب: تهمة الجنون، فقد كان أبو لهب ومن جندهم لهذه الغاية يجلسون على طرقات القبائل ويقولون بأنهم أعلم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وإن ما يقوله من كلام، إنما هو ناشئ عن مس وجنون.

⁴ في العام العاشر من بعثته صلى الله عليه وسلم، توفيت زوجته خديجة بنت خويلد، وتوفي عمه أبو طالب، يقول ابن هشام: "فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً. ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيته

وذلك لأنه كان يريهم⁶ في الأولى ما كان يريهم في الأخرى من الشبه بينهما وبين عرافة العرافين⁷ وكهانة الكهنة⁸، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية وغرائزه، وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته.

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوماً مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون⁹، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، يحبون آلهم حبهم لأبنائهم.

والتراب على رأسه فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك".
⁶ الحمى: صغار الحجارة. و- العدد الكثير.
⁷ رباً فلان- ربثاً: علا وارتفع. و- بفلانٍ عن كذا : رفعه ونزهه. و- في الأمر: نظر وفكر.
⁸ العراف: المنجم. و- طبيب العرب. و- الكاهن.
⁹ الكاهن: كل من يتعاطى علماً دقيقاً. ومن العرب من كان يسمى المنجم والطبيب كاهناً. و- الذي يقوم بأمر الرجل ويسعى في حاجته. و- عند اليهود والنصارى: من ارتقى إلى درجة الكهنوت. و- عند أصحاب الديانات الأخرى من غير المسلمين: من ساع له أن يقدم الذبائح والقرابين ويتولى الشعائر الدينية.
⁹ لما نالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى، خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل.
وما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف. كانوا يومئذٍ ساداته، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله، ولكنهم كذبوه، وأعرضوا عنه، فردوا عليه رداً منكراً، وفاجؤوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمح

كان على ثقة من نجاح دعوته، فكان يقول لقريش أشد ما كانوا هزأً به وسخرية: ((يا معشر قريش، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون)).

كان حليماً سمح الأخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون¹⁰ منه ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى¹¹ الجزور¹²، وهو في صلاته، بل كان يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول "والله ولو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

القول. فقام رسول الله من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه إلى ذلك. ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، وأخذوا يرمونه بالحجارة حتى أن قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذتا تدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه.

¹⁰ يقال شعث فلان: تنقصه.

¹¹ السلى للدواب بمنزله المشيمة للإنسان.

¹² الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل.

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور¹³ الخفاء إلى طور الظهور.

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره، وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل ذكرى للشباب على الحق والجهاد في سبيل الله .

لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عناءً كثيراً ومشقة عظيمة، فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به، بل مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحققين أعواناً وأنصاراً، فوضعوا عليه العيون¹⁴ والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعدما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه يتسلقان الصخور، ويتسريان في الأغوار

¹³ الطُّورُ: المرة والتارة.

¹⁴ جهر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بالإسلام منذ أن هداه تعالى إليه، وتحدى قريشاً عند هجرته قائلاً لهم: "من أراد أن تشكله أمه، أو يتيم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقتني وراء هذا الوادي" فما تبعه منهم أحد.

والكهوف، ويلوذان بأكناف¹⁵ الشعاب¹⁶ والهضاب، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما،
ما أراد بفضل الصبر والثبات على الحق.

إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول
إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا
فيها كيف يكون الصدق في القول والإخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة إلى
النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الإفرنج، فلدينا في
تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة، والحكمة
والسياسة، والشرف الحقيقي، والإنسانية الكاملة، وهي حياة نبينا صلى الله عليه
وسلم، وحسبنا بها وكفى.

* * *

¹⁵ الكنف: جانب الشيء. و- الظل. الجمع أكناف. وكنا الرجل: حُضناه عن يمينه وعن شماله، وكنف الطائر:
جناحه. وكنف الله: رحمته وستره وحفظه.

¹⁶ الشَّعْبُ: انفراج بين الجبلين. الجمع شعاب. و- الطريق. و- مجرى للماء تحت الأرض.

الغد

قال الأمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " لا تفرح بسقوط غيرك فإنك لا تدري ما تضرر لك الأيام".

عرفتُ أني فكرتُ ليلة أمس فيما أكتب اليوم، وعرفتُ أني أخذ الساعة بقلمني بين أناملي¹⁷، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها، ولكنني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه¹⁸، أو يكبو¹⁹ دون غايته؟ وهل أستطيع أن أتم رسالتي هذه، أو يعترض عارض²⁰ من عوارض الدهر²¹ في سبيلها؟ لأنني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً، ولأن المستقبل بيد الله.

عُرف أني لبست أثوابي في الصباح، وأنني لا أزال ألبسها حتى الآن، ولكنني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل؟

¹⁷ الأُمْلَةُ: عقدة الإصبع أو سلامها.و- المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر. الجمع أنامل.

¹⁸ المَدَى: المسافة و- الغاية.

¹⁹ كبا: سقط على وجهه.

²⁰ العَارِض: ما اعترض في الأفق ففسده، من جرادٍ أو نحل .و- السحاب المطل-و- الجبل، وجانب الوجه.و- الآفة

تعرض في الشيء. والحائل والمانع. ويقال عرض له عارض. الجمع عوارض.

²¹ الدهر: مدة الحياة الدنيا كلها.و- الزمان الطويل. والزمان قَلٌّ أو كَثْر.و- ألف سنة.و- مائة ألف سنة.و-

النازلة.و- الهمة والإرادة و- الغاية.

الغد شبّح مبهم²² يتراءى للنّاظر من مكان بعيد، فربّما كان ملكاً رحيماً، وربّما كان شيطاناً

رحيماً، بل ربّما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزائها وبعثرت

ذراتها²³، فأصبحت كأنّما هي عدم من الإعدام التي لم يسبقها وجود.

الغد بحر خضم²⁴ زاخر يعب عبابه²⁵ وتصطخب²⁶ أمواجه، مما يدريك إن كان يحمل في

الدُّر²⁷ والجوهر أو الموت الأحمر²⁸.

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الأنظار، حتّى لو أن إنساناً رفع قدمه

ليضعها في خروجه من باب قصره، لا يدري أليضعها على عتبة²⁹ القصر أم على حافة

القبر.

²² أبهم الأمر: خفي وأشكل. و- الأمر: أخفاه وأشكله. و- والقفل ونحوه: أغلقه، فلا يهتدي لفتحه. و- فلاناً عن الأمر نحاه.

²³ الدُّرّة: هي أصغر جزء في عنصر ما، يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية.

²⁴ الخضم: البحر الواسع. و- الجمع الكثير. و- السيف القاطع. و- الفرس، الضخم العظيم الوسط.

²⁵ يعب عبابه: يرتفع موجه.

²⁶ صَخَبَ الجمع: صخباً؛ علّت فيه الأصوات واختلطت. و- فلان. صاح وأجلب. و- البحر: تلاطمت أمواجه. فهو صاخب، وصخب.

²⁷ الدُّرّة: واحدة الدُر، وهي اللؤلؤة العظيمة الكبيرة. و- الببغاء الصغيرة. الجمع دُرر.

²⁸ الموت الأحمر: القتل. و- الموت الشديد.

²⁹ العتبة: خشبة الباب التي يوطأ عليها. و- الخشبة العُليا. و- كل مرقة. الجمع عتب. و- الشدة. و- في الهندسة: جسم محمول على دعامتين أو أكثر.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر³⁰، وتتسقطه³¹ العقول، وتستدرجه

الأنظار، فلا يبوح بسر من أسرارهِ، إلا إذا جاءت الصخرة بالماء الزلال³².

كأنّي بالغد وهو كامن في مكمنه³³، رابض³⁴ في مجثمهِ³⁵. متلفع

بفضل إزارهِ³⁶، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء³⁷ والسخرية³⁸ ويتسم

ابتسامات الاستخفاف والازدراء، يقول في نفسه: لو علم هذا

³⁰ البصيرة: قوة الإدراك.و- العلم والخبرة.ويقال: فراسة ذات بصيرة: صادقة.وفعل ذلك عن بصيرة: عن عقيدة ورأي.و- الحجة.و- الرقيب.و- العبرة. الجمع بصائر، وبصار.

³¹ تسقط الخبر: أخذه شيئاً فشيئاً.

³² الزلال: الماء العذب الصافي البارد السلس. و- الصافي من كل شيء. يقال: ذهب وفضة زلال.

³³ المكمن: الموضع يكمن فيه. الجمع مكامن.

³⁴ الربض: مأوى الغنم وغيرها من الدواب.و- ما ولى الأرض من البعير وغيره إذا ربض.و- كل ما تأوي إليه

وتستريح لديه من أم وزوج وبنت وقرابة وبيت وغيره.و- الناحية من الشيء.

³⁵ مجثم الطائر: موضع جثومه، أي تلبده بالأرض.

³⁶ الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن (يذكر ويؤنث).و- الرأي يعلق به في أسفل الكتاب. ويقال: فلان عفيف الأززار: عَفَّ عما يحرم عليه من النساء. وإزار الحائط: ما يلصق به بأسفله للتقوية أو الصيانة أو الزينة.

³⁷ هَزَأَ به، ومنه - هَزَأَ، وهزوءاً: سخر به أو منه. و- الشيء هَزَأً: كسره. و- إبله: عرَّضها للبرد حتى نَفَقَتْ.و- راحلته: ساقها.

³⁸ السُّخْرِيَّة، والسُّخْرِيَّة: الهُزُّء.

الجامع أنه يجمع للوارث، وهذا الباني أنه يبنّي للخراب، وهذا الوالد أنه يلد للموت: ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد. ذلّل الإنسان كل عقبة في العالم، فاتخذ نفقاً³⁹ في الأرض، وصعد في سلم إلى السماء، وعقد ما بين المشرق⁴⁰ والمغرب⁴¹ بأسباب⁴² من حديد، وخيوط من نحاس، وانتقل بعقله إلى العالم العلوي، فعاش في كواكبه، وعرف أغوارها⁴³ وإنجاده⁴⁴، وسهولها وبطاحها⁴⁵،

³⁹ النَّفَقُ: سُرٌّ في الأرض أو الجبل، له مدخل ومخرج. الجمع أنفاق.

⁴⁰ المشرق: جهة شروق الشمس.و- البلاد الإسلامية في شرقي الجزيرة العربية. الجمع مشارق.

⁴¹ المغرب: مكان غروب الشمس.و- زمان غروبها.و- جهة غروبها. وبلاد المغرب: البلاد الواقعة في شمال إفريقيا في غربي مصر: وهي: ليبيا، تونس، الجزائر، ومراكش. ومملكة المغرب اليوم. والمغربان: المغرب والمشرق (على التغليب).

⁴² الأسباب: الجبال، وكل ما يوصل بين الشئين.

⁴³ الغور: كل منخفض من الأرض.و- من كل شيء: قعره وعمقه. يقال: سير غوره: تبين حقيقته وسرّه.و- مثل

الصغير المنقور في الجبل. الجمع غيران، وأغوار. ويقال: فلانٌ بعيد الغور: داهية. وماءٌ غور: غائر.

⁴⁴ النجد : ما ارتفع من الأرض وصلب. الجمع نجد، ونجاد، وأنجد. يقال: هو طلاع، أنجد: ركابٌ لصعاب الأمور سام لمعاليتها.

⁴⁵ الأبطح: المكان المتسع يمر به السيل، فيتراك فيه الرمل والحصى الصغار. ومنه أبطح مكة. الجمع أبطاح.

وعامرها وغامرها⁴⁶، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة والموازين لوزن كرة الأرض إجمالاً وتفصيلاً.

وغاص في البحار، فعرف أعماقها، وفحص تربتها وأزعج سكانها، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها، وغلبها عن لآلئها⁴⁷ وجواهرها، ونفذ من بين الأحجار والآكام⁴⁸ إلى القرون⁴⁹ الخالية، فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون وأين يسكنون، وماذا يأكلون ويشربون، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة، فعرف النفوس وطبائعها⁵⁰، والعقول ومذاهبها⁵¹، والمدارك ومراكزها، حتى

⁴⁶ الغامر من الأرض: خلاف العامر، وهو ما غمره ماءٌ ورملاً أو تراب، وصار لا يصلح للزرع.

⁴⁷ اللؤلؤ: الدر، وهو يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لماعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرخويات. واحدته: لؤلؤه. الجمع لآلئ.

⁴⁸ الأكمة: التل. الجمع أكم، وإكام، وآكام.

⁴⁹ القرن: من الزمان: مائة سنة. الجمع قرون.

⁵⁰ الطبع: الخلق. و- المثل أو الصيغة. و- في علم النفس: مجموعة مظاهر الشعور والسلوك المكتسبة والموروثة التي تميز فرداً عن آخر. الجمع طباع، وأطباع.

⁵¹ المذهب: الطريقة. و- المعتقد الذي يُذهب إليه. يقال: ذهب مذهباً حسناً. ويقال: ما يدري له مذهب. أصل. و- (عند العلماء): مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحدة منسقة. الجمع مذاهب.

كاد يسمع حديث النفس وديب⁵² المنى، واخترق بذكائه كل حجاب، وفتح كل باب، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه، بل لا يجسر⁵³ على قرعه، لأنه باب الله، والله لا يطلع على غيبه أحداً.

أيُّها الشبح⁵⁴ الملتئم⁵⁵ بلثام الغيب، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة⁵⁶ واحدة من صفحات وجهك المقنع، أو لا، فاقترَبْ مِنَّا قليلاً علَّنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل⁵⁷ دوننا، فقد طارت قلوبنا شوقاً⁵⁸ إليك، وذابت أكبادنا وجداً⁵⁹ عليك.

⁵² دبّ - دبّ، وديبياً: مشى مشياً رويداً.

⁵³ جَسَرَ - جَسُوراً، وجسارَةً: شجع. و- مضى ونفذ. فهو جَسِرٌ، وجسورٌ.

⁵⁴ الشَّبح: ما بدا لك شخصه غير جلى من بُعدٍ وشبحُ الشيء: ظله وخياله. يقال: شبح الموت، وشبح الحرب. الجمع أشباح وشبوح.

⁵⁵ اللثام: النقاب يوضع على الفم أو الشفة. الجمع لثمٌ.

⁵⁶ صفحة الشيء: جانبه.

⁵⁷ السَّبلَة: سبلَة الزرع: سنبلَة. و- وسبلَة الرجل: الدائرة التي في وسط شفته العليا. و- طرف الشارب من الشعر. و- مقدّم اللحية.

⁵⁸ الشَّوْق: نزوع النفس إلى الشيء، أو تعلُّقها به. الجمع أشواقٌ.

⁵⁹ وَجَدَ فلانٌ يَجِدُ وَجْدًا: حزن .

أيُّها الغد، إن لنا آمالنا كباراً وصغاراً، وأماني حُساناً وغير حُسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك، وخبّرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها. أ أدلتها⁶⁰ واحترقتها، أم كنت لها من المكرمين؟

لا، لا صن شرك في صدرك، وابق لثامك على وجهك، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا، وأمانينا، حتى لا تفجعنا في أرواحنا ونفوسنا، فإنما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة، وسعداء بالأماني وإن كانت كاذبة.

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

* * *

الكأس الأولى

قال فيثاغورس في (الصداقة): " إذا اختبرت إنساناً فوجدته لا يصلح أن يكون صديقاً، فاحذر من أن تجعله عدواً".

كان لي صديق أحبُّه وأحبُّ سلامة قبله وصفاء سريرته⁶¹ وصدقه ووفاءه في حاليّ بَعْدَه وقربه، وغضبه وحلمه⁶² وسخطه⁶³ ورضاه،

⁶⁰ ذَلَّ - ذَلَّ ، وذَلَّةٌ، ومذلةٌ: ضعف وهان. فهو ذليل.و- له: خضع.و- يقال: سقاهم الله ذلل السحاب: ما لا رعد فيه ولا برق.

⁶¹ السَّريرة: ما يكتُم ويُسَرُّ. الجمع سرائر.

⁶² الحِلْم: الأناة وضبط النفس.و- العقل.

⁶³ سَخَطُهُ وسخط عليه - سَخَطاً، وسَخَاطاً: كرهه وغضب عليه ولم يرضه.

ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتاً، بل أنا لا أبكي إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة⁶⁴ الغريبة في طبائع النفوس!

علقت حبالي بحباله حقبة⁶⁵ من الزمان عرفته فيها وعرفني، ثم سلك سبيلاً غير سبيله، فأنكرته وأنكرني، حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءت فيها، لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت ألقاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها ان يكدر⁶⁶ على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً، لأن حياة المدمنين حياة متشابهة مماثلة، لا فرق بين صباحها ومساءها وأمسها وغدها، ذهاب

⁶⁴ الخَلَّةُ: الثقبَةُ الصغيرة. - الحاجة والفقر. ويقال: فلان ذو خَلَّةٍ: محتاج أو مشتتٍ لأمرٍ من الأمور. - الطريق. - والرَّملة اليتيمة المنفردة. - الخصلة. يقال: فيه خَلَّةٌ حسنةٌ وخَلَّةٌ سيئةٌ. الجمع خِلَال.

⁶⁵ الخُقْب: المدة الطويلة من الدهر ثمانون سنة أو أكثر. - الحَقبة من الدهر: المدة لا وقت لها، أو السنة.

⁶⁶ كَدَّرَ الماء: جعله كدراً. ويقال: كَدَّرَ عيشه. - فلاناً: غمه.

إلى الحانات⁶⁷ فشراب، فخمارة⁶⁸، فنوم، فذهاب، كالحلقة المفرغة، لا يدري أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن⁶⁹، حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى⁷⁰ يستيقظ عند سكونها، وكان أخرى أن يوقظه دورانها. لذلك لم يشغل هذا المسكين محلاً من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربداً⁷¹ في الحانات، ولا مطرحاً في مدرج الطرق ولا معتقلاً في أيدي الشرط⁷²، هناك سألت عنه فقيل لي: مريض، فلم أعجب لشيء كنت أعد له الأيام والأعوام، كما يُعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

⁶⁷ الحانة: بيت الخمار. والنسبة إليها: حانوي. والحنوت: الحانة. و دكان الخمار. الجمع حوانيت.

⁶⁸ الخمار: صداع الشراب.

⁶⁹ الذهن: الفهم والعقل. الجمع أذهان. ويوصف به فيقال: فلان ذهن: ذكي فطن. و- القوة. وفي الاصطلاح العلمي: ما به الشعور بالظواهر النفسية المختلفة، ويطلق أيضاً على التفكير وقوانينه، أو مجرد الاستعداد للإدراك.

⁷⁰ الرّحى، والرّحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

⁷¹ عربد: ساء خُلُقُه. و- السّكران على الناس: آذاهم. ويقال: عربد على أصحابه عريضة السكران.

⁷² الشرطة: حَفْظَةُ الأَمْنِ في البلاد. الواحد: شرطي. وصاحب الشرطة: رئيسها.

دخلت عليه أعوده فلم أجد طبيباً ولا عائداً، لأنه فقير، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويبطنون حب الصفراء⁷³ والبيضاء⁷⁴، والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر⁷⁵ فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأنني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفف بأجنحته في غرفه وقاعاته، ولم أر دخان المطبخ، ولم أسمع ضوضاء⁷⁶ الخدم، ولا بكاء أطفال، ولا رنين الأجراس، فكأنني دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود⁷⁷ الحي.

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب⁷⁸ لاصق بعظم ناحل⁷⁹، فقلت: أيُّها الخيال الشاخص بصره إلى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك

⁷³ الصفراء: الذهب.

⁷⁴ الأبيض: المتصف بالبياض. و- الفضّة. و- السيف. ويقال: وجهٌ أبيض: نقي اللون من الكلف والسواد الشائن. وفلانٌ أبيض: نقي العرض. وموت أبيض: أتى فجأة لم يسبقه مرض يغير اللون. الجمع بيض. والأبيضان: الماء واللبن. و- الماء والخبز. و- الشباب.

⁷⁵ أقول أنا بالفقر: الفقر جريمة كبرى تستحق عقوبة الإعدام. وأقول أيضاً: الفقر غابة مظلمة تحتضن أشرس الوحوش.

⁷⁶ الضوضى: الصياح والجلبة. و- أصوات الناس في الحرب وغيرها.

⁷⁷ العليل: عوداً، وعيادةً: زاره. و- الطبيب المريض: زاره للعلاج. فهو عائد.

⁷⁸ الإهاب: الجلد.

⁷⁹ نَحَلَ - نُحُولاً: دَقَّ وهزل. يقال: نَحَلَ جسمه. فهو ناحل ونحيل.

أن تدلني عليه؟ فبعد لأي ما⁸⁰ حرك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم،
مِمَ تشكو؟ فزفر زفرة⁸¹ كادت تتساقط لها أضلاعه⁸² وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت:
أي كأس تريد، قال: أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وها أنا ذا
اليوم أودعها حياتي، قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذي صرت
إليه فما أجديت عليك شيئاً⁸³، قال: ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش
النكد⁸⁴ أكثر ما اعلم، ولكنني كنتُ شربتُ الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي.

كل كأس شربتها جنتها عليّ الكأس الأولى، أما هي فلم يجنّها عليّ غير ضعفي وقصور
عقلي عن إدراك الأصدقاء والخطاء⁸⁵.

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر
في الانقياد إليها، كما يعذر في الانقياد إلى غيرها من الشهوات⁸⁶

⁸⁰ يقال: فعله بعد لأي، أي إبطاء.و- ما زائدة.

⁸¹ الرُّفِير: إخراج النفس بعد مدة، وهو خلاف الشهيق.

⁸² الضَّلْعُ: عظمٌ من عظام قفص الصدر مُنْحَنٍ وفيه عَرْضٌ.

⁸³ هذا يذكرني بقول ابن الجوزي، إلى كم تَمَاطِلُون بالعمل، وتطمعون في بلوغ الأمل، وتغتزون بفسحة المهل، ولا

تذكرون هجوم الأجل؟ ما ولدتم فللتراب، وما بنيتم للخراب، وما جمعتم للذهاب، وما علمتم ففي كتابٍ

مدَّخِرٍ ليوم الحساب.

⁸⁴ النَّكَدُ: كلُّ شيءٍ جرَّ على صاحبه شراً. ويقال: رجل نَكَّدَ شَوْمَ عَمِيرٍ. وأرض نَكَّدَ: قليلة الخير. الجمع نَكَادٌ.

⁸⁵ الْخِلَاطَةُ: الْعِشْرَةُ.

الغريزية⁸⁷، فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى، فلم يتناولها؟ يتناولها لأنَّ الحَوْنَةَ الكاذبين من خِلانهِ⁸⁸ وعِشْرانهِ⁸⁹ خدعوه عن نفسه في أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التي لا تتم إلا بقراع⁹⁰ الكؤوس وضوء الاجتماع. ولو علمتُ كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفة وأي ذريعة⁹¹ تذرعوإلى ذلك، لتحققت أنه أبله⁹² إلى النهاية من البلاهة، وضعيف إلى الغاية التي ليس وراءها غاية. أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان.

⁸⁶ الشَّهْوَةُ : الرغبة الشديدة.و- القوة النفسانية الراغبة فيما يشتهي.و- وما يشتهي من الملذات المادية. الجمع شهوات، أشهية، وشهى.

⁸⁷ الغَرِيْزَةُ : الطبيعة والقريحة والسَّجِيَّة. و- في الفلسفة : صورة من صور النشاط النفسي ، وطرّاز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية . الجمع غرائز.

⁸⁸ الخِلُّ : الصديق المختص . الجمع أخلال.

⁸⁹ العَشِيرُ : الزوج زو- الزوجة . و- المعاشر . و- الصديق . و- القريب . الجمع عشراء.

⁹⁰ قَرَعَ الشَّيْءَ - قَرَعاً : ضربه . يقال : قَرَعَ البابَ : طرقه.

⁹¹ الذريعة: الوسيلة والسبب إلى الشيء. الجمع ذرائع.

⁹² تبلة: بله.و- ضل الطريق فتعسفه. يقال: تبَّله في طريقه.و- الأبله: قالوا: عيش أبله: ناعمٌ رضى. وشباب أبله: غافل منعم.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدوية إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد في رونق⁹³ الجسم، ويبعث نشاطه، وأنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وأنه يُشجع الجبان⁹⁴. ويبعث في القلب الجرأة والإقدام، هذا ما سمعته فصدقته، وخذعت به.

صدقْتُ أن في الشرابِ مزايا: السعادة، والصحة، والفصاحة، والإقدام، فوجدتُ فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء. وهو يتغلغل في الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر⁹⁵ والهديان وهجر⁹⁶ القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العريضة التي لا تسكن إلا في غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفه⁹⁷ والصفع تحية،

⁹³ الرُّونق: رونق السيف: ماؤه وصفاءه وحسنه. ورونق الضُّحَا: أوله. ورونق الشباب: أوله وطراءته.

⁹⁴ وهذا يذكرني بقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((حين يبكي الشجاع، يضحك الجبان)).

⁹⁵ الهَذَرُ: سقط الكلام.

⁹⁶ الهجر: الفحش.

⁹⁷ الطرفة: الملحة المستحسنة.

فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين. أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور
الابتسام ثغراً من ثغور⁹⁸ ساكنيه؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه
بالحسرات⁹⁹، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً
متخجلاً¹⁰⁰ يتسرب في المنعطفات والأزقة، ويعود بألواذ¹⁰¹ الجدر والأسوار فراراً من
نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار.

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فاتحة حياقي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر
أمثالي، من أنهم قتلى الإدمان، لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه أن لي قدر
لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع
الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل
مخدوع بمثل ما خدعت به، ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذي شكوت،
ولولاها ما عافني الأصدقاء ولا زهد في الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السر والضراء.

⁹⁸ الثغر: الفرجة في الجبل ونحوه.و- الموضع يخاف هجوم العدو منه.و- الفم والأسنان.

⁹⁹ الحسرة: شدة التلهف والحزن. ويقال: واحسرتا، ويا حسرتا.

¹⁰⁰ متخجلاً: متيناً.

¹⁰¹ لوذ الجبل: جانبه. الجمع ألواذ.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة: تصم السميع وتعمي البصير، ويسأل من مثلها العافية.

* * *

الدفين الصغير

قال الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في (الدنيا): " الدنيا دارُ بلاء، ونُزُلُ عَناء، أَسْعَدُ الناس فيها أَرغْبُهُم عنها، وأشقاهاهم بها أَرغْبُهُم فيها، فهي الغاشة لمن انتصَحها، المُهْلِكَةُ لمن اطمأنَّ إليها، طوبى لعبيدٍ أطاع فيها ربَّه، ونصحَ نفسَه، وقَدَّمَ توبَتَه، وأَخَّرَ شهوتَه".

الآن نفَضت يدي من تراب قبرك يا بني ، وعدتُ إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك إلا دَمعة لا أستطيع إرسالها ، وزفرة لا أستطيع تصعيدها .
ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرِك فرزقني بك قبل أن أسأله إياك ، ثم استلبنيك قبل أن استعفيه منك، قد أراد أن يتم قضاءه فيّ ، وأن يجرعني الكأس حتى ثَمَلتها،¹⁰² فحرمني حتى دَمعة أرسلها أو زفرة أصعدها ، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه ، فله الحمد راضياً وغازباً ، وله الثناء منعماً وسالماً ، وله مني ما شاء من الرضا بقضائه والصبر على

¹⁰² الشمال: السَم المنقوع .

بلائه،¹⁰³ رأيته يا بني في فراشك علياً فجذعت . ثم خفت عليك الموت ففزعت¹⁰⁴

وكأما كان يخيل إليّ أن الموت والحياة شأن من شؤون الناس وعمل من الأعمال

التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك، فكتب لي الدواء ، ووعدني

بالشفاء ، فجلستُ بجانبك أصب في فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة، والقدر

ينتزع من جنبك الحياة قطعة قطعة ، حتّى نظرت فإذا أنت بين جثة¹⁰⁵

¹⁰³ هذا الكلام يذكرني بقصة ، أن سعيد أبو عثمان ، قال : نظر رجلٌ إلى امرأة . فقال : ما رأيت مثل هذا الحسن وهذه النظارة ، وما ذاك إلا من قلة الحزن . فقالت : يا عبد الله ، والله إنه ليذبحني الحزن وما يشركني فيه أحد . قال : وكيف ؟

قالت : ذبح زوجي شاهٌ مضحياً ولي صبيان يلعبان ، فقال أكبرهما للأصغر : أريك كيف صنع أبي بالشاة؟ فعلقه فذبحه ، فما شعرنا به إلا متشطحا ، فلما استعلت الضجة هرب الغلام ناحية الجبل ، فرهقه ذئب فأكله ، ونحن لا نعلم ، واتبعه أبوه ليطلبه فمات عطشاً ، فأفردني الدهر .

قال : فكيف صبرك؟ قالت : لو رأيت في الجزع مدركاً ما اخترت عليه . (هذه القصة من كتاب قصص عشاق العرب - سامر أمين ، مشروحة الهوامش ، ص139).

¹⁰⁴ الفَزَعُ : الخوف والدُّعْرُ . الجمع أفزاعٌ .

¹⁰⁵ إذا تأملت أيها الإنسان وقوع الموت ، فلن تجدها عشوائية ، وإنما وراءها أسبابها الموضوعية ، التي تجعلها إمكانية معلقة بتكامل شروطها. أما عن الذين يتحدثون عن زيادة معدلات احتمالات الحياة وتحسين الظروف الصحية ، فمن المؤكد أن قدرة العلم على تحسين ظروف الحياة الإنسانية يتحدثون عن الحياة ، أما الموت فما زال هناك في نهاية النفق ، ينتظر جميع المخلوقات .

باردة لا حراك بها¹⁰⁶ وإذا قارورة¹⁰⁷ الدواء لا تزال في يدي . فعلمتُ أني قد ثكلتك!¹⁰⁸
وأن الأمر أمر القضاء , لا أمر الدواء . سأنام يا بني بعد قليل على فراش مثل فراشك ,
وسيعالج مني المقدار ما عالج منك , وأحسب أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك
الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ,¹⁰⁹ وأحداثها وخطوبها¹¹⁰ وأحداثها¹¹¹ : هو الندم
العظيم الذي لا أزال أكابد ألمه على تلك الجرعة¹¹² المريرة التي كنتُ أجرعك إياها بيدي
وأنت تجود بنفسك, فيربد وجهك وتختلج¹¹³ أعضاؤك , وتدمع عيناك , ومالك يد

¹⁰⁶ تدبر أن الموت هو انتهاء أجل الإنسان أو المخلوق الحي , ويكون ذلك بخروج الروح أو توقف الدماغ أو التنفس وسائر الأعضاء عن الحركة , فيصبح الكائن الحي فاقد القدرة على أداء وظائفه .

¹⁰⁷ القارورة : وعاءٌ من الزجاج تحفظ فيه السوائل . و- وعاء الطيب . الجمع قوارير .

¹⁰⁸ الثكل : فقد الحبيب .

¹⁰⁹ الطور : المرة والتارة . و- الحد . و- ما كان على حد الشيء أو بحذائه . ويقال : عدا أو تعدى طوره : أي جاوز حده وقدره . و- الصنف والنوع . و- الحال والهيئة . الجمع أطوارٌ.

¹¹⁰ الخطب : الحال والشأن . و- الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب . الجمع خطوبٌ.

¹¹¹ الحدثان : الليل والنهار . وحدثان الدهر : نوائبه وحوادثه .

¹¹² جرع الماء ونحوه جرعاً : بلعه .

¹¹³ خَلَجَ - خَلَجاً : اشتكى لَحْمَهُ وَعَظْمَهُ من عملٍ عمله , أو طولٍ مِثْلِي وَتَعَبَ . فهو أَخْلَجَ , وهي خُلْجَاءُ . الجمع خُلْجٌ.

فتستطيع أن تمدّها إليّ لتدفعني عنك , ولا لسان فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق .

لقد كان خيراً لي ولك يا بني أن أكل إلى الله أمرك في شفائك ومريضك , وحياتك وموتك ,
وألا يكون آخر عهدك¹¹⁴ بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي أجشمك إياها , فلقد
أصبحت أعتقد أنني كنت عوناً للقضاء عليك وإن كأس المنية¹¹⁵ التي كان يحملها لك
القدر في يده لم تكن أمر مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي .
ما أسمع¹¹⁶ وجه الحياة من بعدك يا بني ! وما أقبح صورة هذه الكائنات في نظري
! وما أشد ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إياه ! فلقد كنت تطلع في أرجائه
شمساً مشرقة تضيئ لي كل شيء فيه , أما اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى
عينك الآن في ظلمات قبرك . بكى الباكون والباقيات عليك ما شاءوا , وتفجعوا¹¹⁷

¹¹⁴ الْعَهْدُ : الْعِلْمُ . يقال : هو قريب العهد بكذا : قريب العلم به . وعهدي بك مساعداً للضعفاء . - الوصية .
و- اليمين التي تستوثق بها مَن عاهدك . - الزمان . الجمع عُهودٌ ، وعِهادٌ .

¹¹⁵ المنية : الموت . الجمع منايا .

¹¹⁶ سمج - سماجة , وسموجة : قبح .

¹¹⁷ الْفَاجِعَةُ : المصيبة المؤلمة تُوجع الإنسان بفقد ما يعزُّ عليه من مالٍ أو حميم . الجمع فواجعٌ .

ما تفجعوا , حتى إذا استنفذوا ماء شؤونهم , وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا, لجأوا إلى مضاجعهم¹¹⁸ فسكنوا إليها , ولم يبقَ ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين¹¹⁹ عين أبيك الثاكل المسكين , وعين أخرى أنت تعلمها . لقد طال عليّ الليل حتى مللته , ولكنني لا أسأل الله أن يفرج لي سواده عن بياض النهار , لأن الفجیعة التي فجعتها بفقدك لم تبقى بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك¹²⁰ , فليتّ الليل باقي حتى أرى وجه النهار , بل ليتّ النهار يأتي , فقد مللت هذا الظلام .

دفتك اليوم يا بني ودفت أخاك من قبلك , ودفت من قبلكما أخويكما , فأنّا في كل يوم أستقبل زائراً جديداً , وأودع ضيفاً راحلاً.

فيا لله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب , وأحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب . لقد افتلذ¹²¹ كل منكم يا بني من كبدي فلذة

¹¹⁸ ضجع - ضجعاً , وضجوعاً: وضع جنبه على الأرض أو نحوها . و-إليه : مال .

¹¹⁹ القريح : الجريح .

¹²⁰ يذكرني ذلك , بقول أعرابية مات ابنها . قيل لها : ما أحسن عزاءك عن ابنك . فقالت : إن مصيبيته أمنتني من المصائب بعده. ويقصد أن هذه المصيبة كبيرة، بحيث لن ترى مصيبة بعدها لأنها ستموت ، أو أن مصيبة موت ابنها كبيرة ، ولن ترى أكبر منها.

¹²¹ الفلذة : القطعة من الكبدة واللحم والذهب والفضة . وأفلاذ الأكباد : الأولاد . وأفلاذ الأرض : كنوزها .

فأصبحت هذه الكبد الخرقاء مزقاً مبعثرة في زوايا القبور , ولم يبق لي منها إلا دماء قليل
لا أحسبه باقياً على الدهر , ولا أحسب الدهر تاركاً دون أن يذهب به كما ذهب
بأخواته من قبل .

لماذا ذهبتم يا بني بعدما جئتم ؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون؟. لولا
مجيئكم ما أسفت خلو يدي منكم , لأنني ما تعودت أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي ,
ولو أنكم بقيتم بعدما جئتم ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أرى من الدهر في أمركم أن يتزحزح عن طريقي التي أسير فيها , وأن يزوي
وجهه عني فلا أراه ولا يراني , ولا يحسن إلي ولا يسئ ولا يتقدم إلي بخير ولا شر , ولا
يتراءى لي مبتسماً , ولا معتطفاً , ولا ضاحكاً , ولا باكياً , لو أنه رضى مني بذلك , ولكنه كان
أذكي قلباً , وأنفذ بصرأ , من أن يفوته العلم بأنني ما كنت على النعمة لو لم تكن في يدي ,
وما كنت أجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها, وكان لابد له أن يجرى في سنة الشقاء
التي أخذ على نفسه أن يجريها في الناس جميعاً , فلما عجز عن أن يدخل إلي من باب
الطمع, دخل إلي من باب الأمل , فهو يمنحني المنحة فأغتنب بها حقبة من الدهر , حتى
إذا علم أن بذرة الأمل التي غرسها قد نمت وازدهرت وأني قد استعذبت طعمها واستطبت
مذاقها , كر علي فانتزعها من يدي انعم ما أكون بها , كما تنزع الكأس الباردة من يد

الظامئ الهيمان , ليعظم وقع السهم في كبدي , ويفدح سلب النعمة من يدي , ولولا ذلك ما نال مني منالاً , ولا وجد إليّ سبيلاً .

يا بني , إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة¹²² من رياض الجنة , أو على شاطئ غدير¹²³ من غدرانها , أو تحت ظلال قصر من قصورها فاذكروني مثل ما أذكركم , وقفوا بين يدي ربكم صفّاً واحداً , كما يقف بين يديه المصلون ومدوا إليه أكفكم الصغيرة , كما يمدّها السائلون , وقولوا له : اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكُنّا نحبه , وقد فرقت الأيام بيننا وبينه , فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله , ولا نزال بين جوانحنا¹²⁴ من الوجد به , والحنين إليه , ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي تنعم بها في جوارك بين سمعك و بصرك , وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً كثيراً , فإما أن تأخذ إليه أو تأتي به إلينا.. لا, بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتي بي إليكم .

¹²² الروضة : الأرض ذات الخضرة . و- البستان الحسن . يقال : مجلسه روضة : جميل ممتع . الجمع روض ,

ورياض . وروضة الحوض ونحوه : قدرٌ ما يغطى أرضه من الماء .

¹²³ الغدير : القطعة من الماء يغادرها السيل . و- عند الجغرافيين : النهر الصغير . الجمع غدرٌ , وغدران .

¹²⁴ الجانحة : الضلع القصيرة مما يلي الصدر . الجمع جوانح .

فإن الحياة التي كرهتها لنفسى لا أرضاها لكم , فعسى¹²⁵ أن يستجيب الله من دعائكم
ما لم يستجيب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فلتلقي كما كنّا .

مناجاة القمر

أيُّها الكوكب المطل من علياء سمائه . أنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها
, وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد¹²⁶ من جمان¹²⁷ ؟ أم ملك عظيم جالس
فوق عرشه¹²⁸ , وهذه النيرات حور¹²⁹ وولدان ؟ أم فص¹³⁰ من ماس¹³¹ يتلأأ ,

¹²⁵ عَسَى: فعلٌ يفيد الرجاء.

¹²⁶ القلادة : ما يجعل في العنق من حلٍ ونحوه . ووسام يجعل في العنق تمنحه الدولة لمن تشاء تقديراً له .
الجمع قلائد .

¹²⁷ الجمان : اللؤلؤ . و- حبٌّ يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ . و- نسيج من جلد , مطرز بخرز ملون تتوشح
به المرأة .

¹²⁸ العرش : الملك . و- سرير الملك .

¹²⁹ الحور : شدة بياض العين مع شدة سواد سوادها .

¹³⁰ الفص : ملتقى كل عظمين . و- ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة وغيرها . و- من الأمر : حقيقته
وجوهره . الجمع فصوص , وأفصّ.

¹³¹ الألماس : حجر شفاف شديد اللمعان , ذو ألوان , وهو أعظم الحجارة النفيسة قيمة . وأشد الأجسام صلابة ,
يؤثر في جميعها ولا يؤثر فيه جسم .

وهذا الأفق¹³² المحيط بك خاتم من الأنوار ؟ أم مرآة صافية ، وهذه الهالة الدائرة بك

إطار ، أم عين ثرة¹³³ ثجاجة¹³⁴ ؟ وهذه الأشعة جداول تتدفق ؟ أو تنور مسجور ،

وهذه الكواكب شرر يتألف ؟!

أيُّها القمر المنير :

إنك أنرت الأرض : وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها¹³⁵ ، وعامرها وغامرها ، فهل لك

أن تشرق في نفسي فتنير ظلمتها ، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان ؟

أيُّها القمر المنير :

إن بيني وبينك شهباً واتصالاً ، أنت وحيد في سماءك ، وأنا وحيد في أرضي، كلانا يقطع

شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ، لا يلوي على أحد ولا يلوي أحد عليه ، وكلانا يبرز للآخر

في ظلمة الليل فيسايره ويناجيه ، ويراني الراي فيحسبني سعيداً ، لأنه يغتر بابتسامة في

¹³² الأفق : الناحية . و- خط دائري يرى فيه المشاهد السماء كأنها ملتقية بالأرض ، ويبدو متعرجاً على اليابس ، ومكوناً دائرة كاملة على الماء . و- مدى الاطلاع ، يقال في المعرفة والرأي : فلان واسع الأفق أو ضيق الأفق . الجمع آفاق.

¹³³ ثُرُ السائل - ثراً : غزر وكثر . ويقال : ثرت البئر والسحابة والعين .

¹³⁴ ثَجَّ الماء - ثجوجاً : سال وانصب .

¹³⁵ الوَعْرُ : المكان الصُّلب . و- المكان المخيف . ويقال: رجل وعْرُ المعروف : قليله . الجمع : أوعُرْ ، وأوعار، وووور ، وووورة.

ثغري¹³⁶ , وطلاقة في وجهي , ولو كشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليه من الهموم
والأحزان لبكى لى بكاء الحزين إثر الحزين , ويراك الراي فيحسبك مغتبطاً¹³⁷ مسروراً ,
لأنه يغتر بجمال وجهك ولمعان جبينك , وصفاء أديمك ,¹³⁸ ولو كشف له عن عالمك لرآه
عالمًا خراباً , كوناً يباباً ,¹³⁹ لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر , ولا ينطق إنسان , ولا يبغم
¹⁴⁰ حيوان .

أيُّها القمر المنير :

كان لي حبيب يملأ نفسي نوراً , وقلبي لذة وسروراً , وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين
سمعك وبصرك , وقد فرق الدهر بيني وبينه , فهل لك أن تحدثني عنه , وتكشف لي
عن مكان وجوده , فرمها كان ينظر إليك نظري , ويناجيك مناجاتي , ويرجوك رجائي .

¹³⁶ الثَّغْرُ : الفُرْجَة في الجبل ونحوه . و- الموضع يُخاف هجُومَ العدو منه . و- الفم . و- الأسنان . الجمع تُغُورٌ .

¹³⁷ اغْتَبَطَ : فرح بالنعمة .

¹³⁸ الأديم : الجلد . و- الطعام المأدوم . وأديم كل شيء : ظاهره . يقال : أديم الأرض . وأديم الليل : ظلمته .
وأديم النهار : بياضه . ويقال : ليس تحت أديم السماء أكرم منه .

¹³⁹ اليباب : الخراب . و- الخالي لا شيء فيه . يقال : أرض يباب , ودارهم خرابٌ يباب . وحوض يباب : لا ماء فيه .

¹⁴⁰ البغام : صوت الطيبة .

وهانذا يخيل إليّ أنني أرى صورته في مرآتك , وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من
أجله , فازداد شوقاً إليه , وحزناً عليه، فأبق في مكانك طويلاً تطل وقففتنا , ويدوم
اجتماعنا .

أيُّها القمر المنير :

مالي أراك تنحدر قليلاً قليلاً إلى مغربك كأنك تريد أن تفارقني , ومالي أرى نورك الساطع
قد أخذ في الانقياد شيئاً فشيئاً , وما هذا السيف المسلول الذي يلمع من جانب الأفق
على رأسك؟ قف قليلاً , لا تغب عني , لا تفارقني , لا تتركني وحيداً , فإنني لا أعرف
غيرك , ولا آنس بمخلوق سواك.

آه , لقد طلع الفجر , ففارقني مؤنسي , وارتحل عني صديقي , فمتى تنقضي وحشة
النهار , ويقبل إليّ أنسى الظلام!!

الغني والفقير

قال لقمان الحكيم في (الفقر) لأبنه وهو يعظه : " أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أرَ شيئاً أَمَرٌ من الفقر، فإن افتقرت فلا تحدث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يُعْطِه، أو دعا فلم يجبه، أو تضرع فلم يكشف ما به".

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيتُه واضعاً يده على بطنه كأنها يشكو ألماً ، فرثيتُ لحاله وسألته : ما باله ؟ فشكا إليّ الجوع ، ففتأته ¹⁴¹ عنه ببعض ما قدرت عليه ، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء ¹⁴² والنعمة ، فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البأس الفقير ، فسألته عما به فشكا إليّ البطننة ¹⁴³ ، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ¹⁴⁴ ولا ألماً .

¹⁴¹ يقال : فتأت فلاناً عن فلان ، إذا سكنت غبطته عليه .

¹⁴² الثراء : كثرة المال .

¹⁴³ البطننة : الإبتلاء الشديد من الطعام .

¹⁴⁴ سقم – سقماً ، وسقاماً : طال مرضه . فهو سقمٌ .

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته , ويطفئ غلته,¹⁴⁵ ولكنه كان محباً لنفسه , مغالياً بها , فضم إلى مائدته ما اختلسه من صفحة¹⁴⁶ الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة , حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه . وهكذا يصدق المثل القائل : " بطنة الغني انتقام لجوع الفقير " .

ما زنت¹⁴⁷ السماء بمائها , ولا شحت¹⁴⁸ الأرض بنباتها , ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما¹⁴⁹ واحتجتهما¹⁵⁰ دونه , فأصبح فقيراً معدماً , شاكياً متظلماً , غرماؤه المياسير الأغنياء , لا الأرض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس . فاستطيع أن أتصور كما يتصورون , حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال ,

¹⁴⁵ الغلة : شدة العطش وحرارته . و- الغلالة . و- ما يوارى الإنسان . والغلول : الطعام أو الشراب الذي يدخل الجوف . يقال : نعم الغلول شراباً شربته أو طعاماً طعمته : إذا كان موافقاً .

¹⁴⁶ الصفحة : إناء من آنية الطعام . الجمع صحافٌ .

¹⁴⁷ الضنين : الشديد البخل , أو البخل بالشيء النفيس . الجمع أضاء . وهن ضنائن . وضائن الله : خواص خلقه .

¹⁴⁸ الشح : البخل .

¹⁴⁹ زوى عنه حقه : منعه إياه .

¹⁵⁰ احتجن الشيء : إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه .

وأولى بامتلاكه من الضعفاء , إن كانت القوة حجتهم عليه , فلم لا يملكون بهذه الحجة

سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم ؟

وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع . وإن كانت حجتهم أنهم

ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم : إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آباؤكم في

أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم ؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاعتصبوا ذلك المال من الضعفاء

, وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اعتصبوا منهم , فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم

في رد المال إلى أربابه , لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان , وما أقسى قلوبهم , ينال أحدهم ملء جفنيه على

فراشه الوثير¹⁵¹ , ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يردد برداً وقرأ¹⁵² ,

ويجلس أمام مائدة حافلة¹⁵³ بصنوف الطعام قديده¹⁵⁴ وشواءه حلوه وحامضه ولا

ينغص عليه شهوته علمه . أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتوالت أحشاؤه شوقاً

¹⁵¹ الوثر : الفراش الوطئ . و- الثوب الذي تجلل به الثياب فيعلوها .

¹⁵² الوثير: العظم المصدوع . و- النقرة العظيمة في الصخرة تمسك الماء . ورجلٌ وقيراً أثقله الدّين .

¹⁵³ الحفل من كل شيء : ما أجمع منه . و- الجمع العظيم . يقال : عنده حفلٌ من الناس . ويقال أيضاً: جمعٌ حفلٌ : كثير .

¹⁵⁴ القديد من اللحم : ما قطع طويلاً وملح وجفف في الهواء والشمس .

إلى فتات¹⁵⁵ تلك المائدة ويسيل لعبه¹⁵⁶ تلهفًا على فضلاتها، بل أن بينهم من لا تخالط
الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه ، فيظل يسرد¹⁵⁷ على مسمع الفقير أحاديث نعمته
وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفة من
الأثاث والريش ، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له في كل
كلمة من كلمات وحركه من حركاته : أنا سعيدٌ لأني غنيّ ، وأنت شقي لأنك فقير .¹⁵⁸

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم
كما يستخدمون أدوات منازلهم ، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا
أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين
أيديهم ، لامتصوا دماءهم كم اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة، كما حرموهم لذة

¹⁵⁵ الفتات من الشيء : ما تكسر منه وتساقط .

¹⁵⁶ اللعب : ما سال من الفم .

¹⁵⁷ السرد : شيءٌ سرْدٌ : تتابعُ .

¹⁵⁸ وكأنه يقول له ، كالمثل الأمريكي: " لا شيء أحلى من العسل سوى المال " .

العيش فيها .¹⁵⁹ لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه مُحسناً , لأني أعتمد
خُصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان . و أني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن إلى
نفسه , وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان , ورجل
يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل
يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً , ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا
إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه , وأما الرابع : وهو الذي
يحسن إلى غيره , ويحسن إلى نفسه , فلا أعلم له مكاناً , ولا أجد إليه سبيلاً , وأحسب
أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني " **ديوجين الكلبى** " حينما سئل : ما
يصنع بمصباحه ؟ وكان يدور به بياض النهار, فقال : " أفتش عن إنسان "¹⁶⁰.

¹⁵⁹ تأمل , كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه , جالساً يوماً من الأيام في بيته , ذات مساء مع أصحابه ,
فضعف نور السراج فقام وأصلحه بنفسه . فقال أحد الحاضرين : يا أمير المؤمنين , كل واحد منا كان يود أن
تأمره بإصلاح السراج , فقال عمر : ليس في المروءة أن يستخدم الإنسان ضيفه , قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر .

¹⁶⁰ وهذا يذكرني , أنه مر رجل من الأذكىاء برجل قائم في الطريق فقال : ما وقوفك ؟ قال : انتظر إنساناً . فقال :
يطول قيامك إذن .

أَيُّهَا المحزون

قال أرسطو في (الأمل): "إذا ضاع الأمل، فإننا نكون فقدنا كل شيء".

إن كنت تعلم أنك أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك، وألا يُعطيك ولا يمنعك إلا كما تُحب وتشتهى ، فجدِّد بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردّها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها حتى تكرر عليها راجعة فتستردّها . وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم .¹⁶¹ سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ،¹⁶² ومن يطأ بنعله¹⁶³ هام الجوزاء .¹⁶⁴ ومن ينام على بساط الغبراء¹⁶⁵ ، فخفض من حزنك وكفكف من دمعك ..

¹⁶¹ هذا يذكرني بالمثل البرتغالي : " يجعلنا الموت نتساوى في القبر وليس في الأبدية " . وتأمل معي ، أخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : يتصفح ملك الموت المنازل كل يوم خمس مرات ويطلع في وجه ابن آدم كل يوم اطلاعه .

فمنها الذعرة التي تصيب الناس يعني القشعريرة والانتفاض .

¹⁶² الكوخ : بيتٌ مسمن من قصب بلا كوة . و- كل مسكن يتخذهُ الزارع قرب زرعهِ يقيم فيه ليحفظ زرعهِ .

¹⁶³ النعل : الحذاء . و- حديد متقوس يوقى به حافر الدابة ، أو جلدٌ يوقى به الخف .

¹⁶⁴ الجوزاء : برجٌ من بروج السماء .

¹⁶⁵ الغبراء : الأرض .

فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان . وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة
المصائب والأحزان .¹⁶⁶ أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى في سماء حياتك
فيملأ عينيك نوراً، وقلبك سروراً , وما هي إلا كرة الطرف أن افتقدته، فما وجدته . ولو
أنك أجملت في أملك لما غلوت في حزنك،¹⁶⁷ ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت
برقاً خاطفاً، ما تظنه زاهراً . وهنالك لا يبهرك طلوعه , فلا يفجعك أفوله .¹⁶⁸
أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها، ونظر المستريب بها، وترقب في
كل ساعة زوالها وفناءها، فإن بقيت في يده فذاك , وإلا فقد أعد لفراقها عدته من قبل .
لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت , ولولا الوثوق بدوام الغنى ما
كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق .

¹⁶⁶ ويتجلى لي قول سقراط : " لو تجمعت مصائب الناس أكواماً , وقيل لكل إنسان تخير ما تشاء , لاسترد كل واحد مصيبتته واختارها دون غيرها " .

¹⁶⁷ يقول شكسبير في الندم : " الندم على ما فات مجلبة لغيره من الآفات " . والمثل الروسي : " الندم على الماضي يعني الجري وراء الريح " . والمثل التركي : " من يتكل على الأمل يمت جوعاً " .

¹⁶⁸ أفل النجم - أفلاً , وأقولاً : غاب . فهو آفل .

قصة :

يروى أن عيسى عليه السلام، مرّ في نفر من أصحابه بجمجمة¹⁶⁹ نخرة¹⁷⁰ هائلة، فقال له أصحابه: يا روح الله لو دعوت الله تعالى أن ينطق لنا هذه الجمجمة حتى نخبرنا بما رأته من العجائب لرجونا أن ننتفع بذلك، قال فصلى عيسى عليه السلام ركعتين، ودعا الله تعالى فأنطقها الله عز وجل.

فقالت الجمجمة: يا روح الله سل عما تريد، فقد أمرني الله أن أخبرك بما سألت عنه فقال عيسى عليه السلام: من كنت في هذه الدنيا ؟ فقالت الجمجمة: يا روح الله ملك هذه الأرض، عشت فيها ألف سنة، وولدت ألف ولد، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وقتلت ألف ملك جبار، ثم كان بعد ذلك كله الموت، ولقد امتحنت هذا الدهر فلم أرَ شيئاً أنفع من الزهد في الدنيا، ولم أرَ هلاك كل أحد إلا في الحرص والطمع ولم أجد العزَّ إلا في الرضا بما قسم الله عز وجل.

¹⁶⁹ الجمجمة: عظم الرأس المشتمل على الدماغ والرأس. والإنسان ورئيس القوم وسيدهم.

¹⁷⁰ نخر العظم: بلى ورم.

موعظة:

قيل مرَّ عيسى عليه السلام بامرأة تبكي على قبر فقال لها: على من تبكين ؟ قالت: على ولدي، قال: عليك بالصبر، قالت: لا أملكه.

قال: فإن أحياه الله لك ونظرت إليه أتدعين البكاء؟ قالت: نعم، قال: فأدعى الله بالاسم الأعظم الذي يحيي به الموتى، فانصدع القبر، وقال ولدها ينفذ التراب عن رأسه. فقالت المرأة: يا روح الله إن ابني شاب وهذا شيخ ! فسأله عيسى عليه السلام عن سبب ذلك فقال: يا روح الله لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة قد قامت فشاب رأسي، فقال له عيسى: ما وجدت في قبرك ؟ قال: يا روح الله كنت حملاً، فحملت ذات يوم لبعض الناس حطباً¹⁷¹ فأخذت منه شظية¹⁷² فتخللت¹⁷³ بها، ورميت بها إلى الأرض، فأول شيء سئلت عنه تلك الشظية.

قال أحدهم:

احذر	دُنْيَاكَ	وغيرتها	واحذر	أن تبدي لها طلباً
تبغى	وداً	ممن قدما	لك	قد قتلت أمّاً وأباً
وعلى	الجيران	فقد جارت	كُلّاً	قهرت أولت عطباً

¹⁷¹ الحطب: كل ما جف من زرع وشجر توقد به النار.

¹⁷² الشظية: العظم الصغير.

¹⁷³ نظفت بها أسناني.

كَمْ مِنْ مَلِكٍ ذِي مَمْلَكَةٍ
 أَضْحَى فِي اللَّحْدِ وَمَقْعَدُهُ
 اطْلُبْ مَوْلَاكَ وَدَعْ دُنْيَاكَ
 كَمْ مِنْ قَصْرِ قَدْ شِيدَ بِنَا
 يَا طَالِبَهَا وَلَا تَلْهُ بِهَا
 أَيْنَ الْمَاضُونَ؟ لَقَدْ سَكَنُوا
 كَانُوا وَمَضُوا ثُمَّ انْقَرَضُوا
 فَالْعُمُرُ مَضَى وَالنِّيبُ أَتَى
 فَأَعَدَ الزَّادَ فَمَا سَفَرُ
 مَوْعِظَةٌ:

قَدْ مَالَ لَهَا سُكْرًا وَصَبَا
 بَتْرَابِ اللَّحْدِ قَدْ احْتَجَبَا
 فغَنَى أَخْرَاكَ تَرَى عَجَبَا
 بِالْمَوْتِ وَهَا أَضْحَى خَرَبَا
 كَمْ تَاهَ بِهَا مَلِكٌ غُصْبَا
 لِحْدًا فَرْدًا خَرَبًا تَرَبَا
 فَتَأَدَّبَ أَنْتَ بِهِمْ أَدْبَا
 وَالْمَوْتُ لِحِينِكَ قَدْ قَرَبَا
 عَمَرَ الْأَيَّامِ قَدْ انْتَهَبَا

قال محمد بن غسان صاحب الكوفة وقاضيهما. دخلت على أُمِّي في يوم عيد أضْحَى،
 فرأيتُ عندها عَجُوزًا في أَطْمَارٍ¹⁷⁴ رَثَّةٍ وإذا لها بيان ولسان، فقلتُ لأُمِّي: من هذه؟
 فقالت: خالتك عانيه أُمُّ جعفر بن يحيى البرمكي¹⁷⁵، فسلمت عليها، وسلمت عليَّ فسألتها
 عن حالها، قلت لها: صبرك الدهر إلى ما أرى!
 قالت: نعم يا بني. إنما كنا في عوارٍ ارتجعها الدهر منا.

¹⁷⁴ الطمر: الثوب الخلق البالي. الجمع أطمار.

¹⁷⁵ وزير هارون الرشيد.

فقلت لها: حدثيني ببعض شأنك.

قالت: خذه جملةً. وقس على ذلك لقد مضى عليَّ عبدٌ مثل هذا منذ ثلاث سنين، وعلى

رأسي أربعمائة وصيفة¹⁷⁶، وأنا أزعم أن ابني عاق، وقد كان بعث إليَّ برسم الأضاحي ألف

رأسٍ من الغنم، وثلاثمائة رأس من البقر، دون ما يتبعُ ذلك من الزينة واللباس، وقد

جئتك اليوم أطلب جلدي شاتين اجعل إحداهما شعاراً¹⁷⁷، والآخر دثاراً¹⁷⁸.

قال فغمني ذلك من قولها، وكربني ما رأيت من حالها، وأبكاني والله- قولها، فوهبت

لها دنانير كانت عندي.

¹⁷⁶ الوصيفة: الخادمة. والفتاة دون المراهقة الجمع وصائف.

¹⁷⁷ الشعار: ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب.

¹⁷⁸ الدثار: ما يتدثر به وهو كل ما فوق الثياب. وتعني غطاءً بالليل.

الرحمة

قال الأحنف بن قيس في (الزمان): "مَنْ أَمِنَ الزَّمانَ خانَهُ، وَمَنْ تَعَظَّمَ عَلَيْهِ أَهَانَهُ".

سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية¹⁷⁹ ولا بحر ، لأني أريد أن أخطب القلب وجهاً لوجه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر.

إن البذور تلقى في الأرض فلا تنبت إلا إذا حرث الحارث تربتها ، وجعل عاليها سافلها ، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته، وتخللت أجزاءه ، وبلغت سويده ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد : كن رحيماً ، أشعر قلبك الرحمة ، ليكون قلبك الرحمة بعينها .
ستقول : أني غير سعيد ، لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب ، أجل . فليكن ذلك كذلك ، ولكن أطعم الجائع وأكس العاري ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك

¹⁷⁹ القافية : آخر كل شيء . و- في الشعر : الحروف التي تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت .

من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك¹⁸⁰ ، ولا تعجب أن
يأتيك النور من سواد الحلك¹⁸¹ ، فالبدر لا يطلع إلا إذا شق رداء الليل ، والفجر لا يدرج
إلا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها، ورثت حبالتها، وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد، ولم
يبق ما يعزى الإنسان عنها إلا لذة واحدة : هي لذة الإحسان .

إن منظر الشاكر منظر جميل جذاب¹⁸² ، ونعمة ثنائته¹⁸³ وحمده أوقع في السمع من
العود¹⁸⁴ في هزجه¹⁸⁵ ورملة¹⁸⁶ وأعذب من نغمات معبد¹⁸⁷ في الثقل الأول¹⁸⁸ .

¹⁸⁰ تأمل ، لما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العبادة ، فسأل عنهم فقبل له : إنهم يستحيون
مما لك عليهم من الدّين . فقال : أخزى الله مالاً يمنع عني الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادي من
كان لقيس عنده مال ، فهو منه في حل . فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد.

¹⁸¹ الحلك : شدة السواد .

¹⁸² تأمل : قال أبو الحسن المدائني : دخل عمران بن حطان يوماً على امرأته ، وكان عمران قبيحاً ذميماً قصيراً ،
وقد تزيت ، وكانت امرأة حسناء ، فلما نظر إليها ازدادت في عينه جمالاً وحسناً ، فلم يتمالك أن يديم النظر
إليها ، فقالت : ما شأنك ؟ قال : لقد أصبحت والله جميلة . فقالت : أبشر ، فإني ، وإياك في الجنة . قال : ومن
أين علمت ذلك ؟ قالت : لأنك أعطيت مثلي فشكرت ، وابتليت بمثلك فصرت ، والصابر والشاكر في الجنة .

¹⁸³ الثناء : المدح . الجمع أثنية .

أحسن إلى الفقراء والبائسين ،¹⁸⁹ وأعدك وعداً صادقاً أنك مستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ، أنك أكرم مخلوق ، وأشرف إنسان. ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيراً بما فعلت،

¹⁸⁴ العود : كل خشبة ، دقيقة كانت أو غليظة ، رطبة كانت أو يابسة . و- ضربٌ من الطيب يتبخر به . و- آلةٌ موسيقيةٌ وترية يضرب عليها بريشة ونحوها .

¹⁸⁵ الهزج : كل صوت فيه ترنم خفيف مطرب . و- صوتٌ فيه بحح . و- صوت الرعد . و- صوت الذباب . و- الخفة والطرب . و- نوعٌ من بحور الشعر العربي والفارسي ، سمي بذلك لتقارب أجزائه ، وهي مفاعلين ست مرات .

¹⁸⁶ الرمل : المطر الضعيف . و- أحد بحور الشعر ، وقد زاد شيوعه في العصر الأموي.

¹⁸⁷ معبد : أحد كبار المغنين في العصر الأموي .

¹⁸⁸ الثقيل الأول : ضرب من ضروب الغناء .

¹⁸⁹ يقال ركب خالد بن عبد الله القسري في يوم شديد البرد كثير الغيوم ، فتعرض له رجل في الطريق ، فقال له : ناشدتك الله إلا ضربت عنقي ، فقال له : أكفرُ بعد إيمان ؟ قال : لا . قال : افترب عن طاعة الرحمن ؟ قال : لا . قال : أقتلت نفساً ؟ قال : لا . قال فما سبب ذلك ؟ قال : لي خصمٌ لجوِّ قد علق بي ولزمني وقهرني . قال من هو ؟ قال : الفقر ، قال : فكم يكفيك لدفعه ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، قال : إني ممدك بأربعة آلاف درهم . ثم قال خالد : يا غلام ، أدفع له أربعة آلاف درهم ، والتفت وقال : وهل ربح أحدٌ من التجار كربحي اليوم ؟ قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : عزمت على أن أعطي هذا ثلاثين ألف درهم ، فلما طلب أربعة آلاف درهم وفر علي ستة وعشرين ألف درهم . فلما سمع الرجل ذلك منه قال : حاشاك أعيدك بالله أن تربح على مؤملك . فقال : يا غلام ، أعطه ثلاثين ألفاً ، ثم قال للرجل : اقبط المال ، واذهب آمناً إلى خصمك ، ومتى رجع يعارضك فاستنجد بنا عليه .

فيدعو صاحبه بدعائه , ويرجو برجائه، وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها¹⁹⁰ بها

الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة : ما يجده الصالحون إذا ذكروا في الملاء الأعلى.¹⁹¹

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود¹⁹² فتبتسم سروراً ببكائك، واغتراباً¹⁹³

بدموعك , لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من

نور، تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان .

إن السماء تبكي بدموع الغمام¹⁹⁴ ، ويخفق قلبها بلمعان البرق¹⁹⁵ ، وتصرخ بهدير¹⁹⁶

الرعد , وأن الأرض تئن بحفيف¹⁹⁷ الريح، وتضج بأمواج البحر , وما بكاء السماء وأنين

الأرض إلا رحمة بالإنسان، ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وأنينها.

¹⁹⁰ الحابور : مجلس السرور .

¹⁹¹ الملاء : الجماعة . و- أشرف القوم وسراتهم . الجمع أملاءً . والملاء الأعلى : الملائكة .

¹⁹² المفؤود : المصاب في فؤاده بألم أو غيره .

¹⁹³ اغتبط : فرح بالنعمة .

¹⁹⁴ الغمامة : السحابة . الجمع غمامم , وغمام . وحب الغمام : البرد .

¹⁹⁵ البرق : الضوء يلمع في السماء على إثر انفجار كهربائي في السحاب . الجمع بروق.

¹⁹⁶ هدر : بالغ في الهدير .

¹⁹⁷ الحفيف من النبات والكلأ : اليابس .

إن اليد التي تصون الدموع، أفضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور .

أشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد ، وكم بين

من يحيي الميت ، ومن يميت الحي .

إن الرحمة كلمة صغيرة، ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في

منظرها . والشمس في حقيقتها.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح¹⁹⁸ الإنسان ضالته من القلب الرحيم، وجد المجتمع ضالته

من السعادة والهناءة . لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا مغبون ولا مهضوم .

ولأقفر الجفون من المدامع، ولا طمأنت الجنوب¹⁹⁹ في المضاجع. ولمحت الرحمة

الشقاء من المجتمع كما يمحو الصباح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه. ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعاً. بل

أرادت حكمته ان يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤنثته²⁰⁰

. ويسد حاجته، ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوي بالضعيف

¹⁹⁸ الجناح : الإثم والجرم . و- الميل إلى الإثم . و- ما يتحمل من الهم والأذى .

¹⁹⁹ الجنب من كل شيء : ناحيته . و- شقه .

²⁰⁰ المؤنث: القوت. الجمع مؤن.

واحترج دونه رزقه. فتغير نظام القسمة العادلة، وتشوه وجهها الجميل، ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل. الفرد هو المجتمع، وإنما يتعدد بتعدد الصور، أتدري متى يكون الإنسان إنساناً؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه، فحقق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها. فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها، انفرد عنها واستوحش من نفسه، وإذا كان الأنس مأخذ الإنسان المجتمع.. فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع.

وجماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد، إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشیطان الرجيم.

ان من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل، فإذا مشى، مشى مندفعاً مندلاً²⁰¹ يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراق في الضحك سخرية²⁰² به وببذاءة²⁰³ ثوبه ودمامة²⁰⁴ خلقه، وأن من الناس إذا عاش الناس عاشرهم ليعرف كيف

²⁰¹ أندلث : كاندفع.

²⁰² السخرية : الهزاء . والمسخرة: ما يجلب السخرية . الجمع مساخر .

²⁰³ بذأ - بذاءً , وبذاء : فحش قوله .

²⁰⁴ دم - دمامة : قبح منظره وصفر جسمه وحقر.

يحتلب درتهم²⁰⁵ ويمتص دماءهم , ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته²⁰⁶ وبقراته , لا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يتربح من الربح في الاتجار بالأنباها وأصوافها , ولو أستطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل , وأن من الناس لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره , يبيت ليله حزناً كثيراً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يحلم في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له , وأن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة أو يدفع عنها مضرة , بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضري²⁰⁷ نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه , حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه , وأن من الناس إذا كشف لك عن أنيابه²⁰⁸ . رأيت الدم الأحمر²⁰⁹ يتفرق فيها , أو

²⁰⁵ الدرة : اللين , أو الكثير منه .

²⁰⁶ الشاة : الواحدة من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش (يقال للذكر والأنثى) . الجمع شاء , وشياه .

²⁰⁷ يقال : أضرني فلان كلبه بالصيد , وضراه : إذا أغراه به وعوده متابعته .

²⁰⁸ الناب : السن بجانب الرباعية , وللإنسان نابان في كل فك . (مذكر وقيل مؤنث) . الجمع أنياب , ونيوب , وأنيب . ويقال : عضه الدهر بنابه وأنياه : أصابه بشره .

²⁰⁹ الموت الأحمر : القتل . و- الموت الشديد وقد تقدم بيان المعنى .

عن أظافره رأيت تحتها مخالب²¹⁰ حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية ، أو عن قلبه رأيت حجراً صلباً²¹¹ من أحجار الغرانيت²¹² لا يبيض²¹³ بقطرة من الرحمة، ولا تخلص إليه نسمة من العظة .

فيا أيُّها الإنسان أخطر الحذر كله أن تكون واحداً من هؤلاء فإنهم سباع²¹⁴ مفترسة وذئاب ضاربه، بل أعطك ألا تدنو من واحد منهم أو تعترض طريقه، فربما بدا له أن يأكلك غير حافل بك، ولا آسف عليك .

أيُّها الإنسان أرحم الأرملة التي مات عنها زوجها ، ولم يترك لها غير صبيه صغار ، ودموع غزار ، أرحمها قبل أن ينال اليأس منها ويبعث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة . أرحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتري منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به سالماً إلى كسر بيتها .²¹⁵

²¹⁰ المخلب : ظفر كل سبع من الماشي والطائر . الجمع ، مخالب ، ومخاليب .

²¹¹ صلد - صلباً ، وصلوداً : صلب . و- الأرض : لم تنبت . و- فلانٌ بخل وجمد على ماله . و- قسا قلبه .

²¹² في الجيولوجيا : صخرٌ طيني حبيباته دقيقة يلتصق بعضها ببعض إذا ابتلت بالماء .

²¹³ بض الدم : سال .

²¹⁴ السبع : كل ما له نابٌ ويعدو على الناس والدواب فيفتسها ، كالأسد والذئب والنمر . و- كل ما له مخلبٌ . وهي سبعة .

²¹⁵ اتعظ، عن سعدان ، قال: أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خيثم لعلها تفتنه ، وجعلوا لها ، إن فعلت ذلك ، ألف درهم ، فلبست أحسن ما قدرت عليه من

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة , ولأن
الله قد وكل أمرها إليك , وما كان لك أن تكذب ثقته بك . ارحم ولدك وأحسن القيام
على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين .
ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الإنصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم,
ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين.
ارحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبيكي بغير دموع ويتوجع ولا يكاد
يبين.

ارحمه وكذب من يقول أن الإنسان طبع على ضرائب لؤم, أقلها أن يقبل يد ضاربه
ويضرب من لا يمد إليه يداً.
ارحم الطير ولا تحبسها في أقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء,
وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير, إن الله وهبها فضاء لا نهاية
له فلا تختصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها, أطلق

الثياب , وتطييت بأطيب ما قدرت عليه , ثم تعرضت له حين خرج من مسجده . فنظر إليها , فراعه أمرها .
فأقبلت عليه وهي سافرة , فقال لها الربيع : كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من لونك
وبهجتك ؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك جبل الوتين ؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير ؟
فصرخت صرخة فسقطت مغشياً عليها , فو الله لقد أفأقت , وبلغت من عبادة ربها ما أنها كانت يوم ماتت
كأنها جذع محترق . (هذه القصة من كتاب روائع من قصص العرب - سامر أمين , مشروحة الهوامش).

سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء فيخيّل إليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيّار.

أيُّها السعداء. أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأتقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

عبرة الدهر

قال أحد الحكماء في (الدنيا): "إنَّ الدنيا تجودُ لتسلب، وتُعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتزرع الأحران في القلوب بما تفاجأ به من استرداد الموهوب".

بنى فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصرًا فخماً يتلأأ في تلك البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء، ويطاول بشرفاته السماء، كأنه نسر محلق في الفضاء، أو قرط²¹⁶ معلق في أذن الجوزاء، وكأن شرفاته²¹⁷ آذان تفضي إليها النجوم بالأسرار وطاقاته أبراج تنتقل فيها الشمس والأقمار.

²¹⁶ القُرْطُ : ما يُعلَّق في شَحْمَةِ الأذن من دُر أو ذهب أو فضة أو نحوها . الجمع أقراطٌ ، وقِراط ، وقُرُوط .
²¹⁷ الشَّرْفَةُ أعلى الشيء.و- من البناء ما يوضع في أعلاه- يحلى به.و- بناء خارج من البيت يستشرف منه على ما حوله. الجمع شرف.

شاده مرمراً²¹⁸ وجلله كلساً²¹⁹ فللطير في ذراه وكور ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقه²²⁰
لرسام إلا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته وأركانه حتى ليخيل إلى السالك بين
أبائه²²¹ وحجراته²²²، ومحاريبه²²³ وعرصاته²²⁴ انه ينتقل من روضة تزهر بالورود
الحمراء، والأنوار البيضاء، إلى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء²²⁵، والنمور الرقطاء²²⁶،
ومن ملعب تصيد فيه الطباء²²⁷ الأسود، إلى غاب تصيد فيه الأسود الطباء، وأنشأ في كبرى
ساحاته، وأوسع باحاته²²⁸،

²¹⁸ المَرْمَرُ : الرُّخَام.

²¹⁹ الكلس: الصاروج يبنى به.

²²⁰ ليقة الدواة: صوفتها، ويتخذها أيضاً لجمع أخلاطه فيها.

²²¹ الأبناء، جمع بهو، وهو البيت المقدم أمام البيوت.

²²² الحُجْرة: الغرفة في أسفل البيت.و- حظيرة الحيوان. الجمع حُجْر.

²²³ المحراب هنا: صدر البيت.

²²⁴ العَرْصة: ساحة الدار.و- البقعة الواسعة بين الدُور لا بناء فيها. الجمع عراض.

²²⁵ الغبراء: الأرض.و- من السنين: الجدبة. وبنو غبراء وبنو الغبراء: الفقراء المحاويج.

²²⁶ الرُّقْطاء: مؤنث الأرقط.و- ضربٌ من الحياتِ أو العطاء به رقطة.و- الكثيرة الزيت أو السمن من الثريد وغيره، لما فيها من البقع. الجمع رَقَطٌ.

²²⁷ الطيبي: هو جنس حيوانات من ذوات الأظلاف والمجوفات القرون. أشهرها الطيبي العربي.

²²⁸ الباحة: الساحة.و- النخل الكثير.وباحة الماء: معظمه. الجمع بوْحٌ.

صهريجاً²²⁹ من المرمر²³⁰ مستديراً يضم بين حاشيته²³¹ الفوارة ينفر الماء منها صعداً كأنه سيف مجرد، أو سهم مسدد، فيخيّل إلى الرائي أن الأرض تتأثر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء، تلك تقاتلها بالرجوم والشُّهب²³²، وهذه تحاربها بالسهام والقضب²³³. وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات، وأغصان، صنوان²³⁴ وغير صنوان، إذا رنحتها نسائم الأسحار، رقصت فوق بساط الأزهار، وتحت ظلال الأثمار، فغنت على رقصها الطييار، غناء الأغاريد لا غناء الأوتار، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته²³⁵ ما شاء الله أن يدخر من نضائد²³⁶ ومقاعد،

²²⁹ الصهريج: حوض كبير للماء. الجمع صهاريج.

²³⁰ المرمر: الرخام، و- صخر رخامي جيّراً متحول يتركب من بلورات الكلسيت، ويستعمل للزينة في البناء. ولصنع التماثيل ونحوها.

²³¹ الحاشية من كل شيء : جانبه وطرفه. و- الأهل والخاصّة، يقال: هؤلاء حاشيته، و- ما علق على الكتاب من زيادات وإيضاح، الجمع حواش. ويقال: عيشَ رقيق الحواشي: ناعماً في دعة، وكلام رقيق الحواشي: لين. و- رجل رقيق الحواشي: لطيف الصحبة.

²³² الشهاب: الشعلة الساطعة من النار. أما الشُّهب: الجبل علاه الثلج.

²³³ القُضب: كل شجرة طالت وبسّطت أغصانها. و- الشجر الرطب يقطع مرة بعد أخرى.

²³⁴ الصنو: النظير والمثل. و- الفسيلة المتفرعة مع غيرها من أصل شجرة واحدة. والأخ الشقيق.

²³⁵ بلهنية العيش: رخاءه.

²³⁶ النضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة.

ووسائد ومساند، وفرش، وعرش، وكلل²³⁷ وحجل²³⁸، وثمانيل²³⁹ وتهاويل²⁴⁰ وصحاف من ذهب، كاللهب، وأكواب من بلور كالنور، وأقفاص للحمائم والنسور، ومقاصير²⁴¹ للسباع والنمور، وعربات وسيارات، وحياد صافنات، ووصائف وولائد، تحيط بالمجالس والموائد، إحاطة القلائد، بأعناق الخرائد²⁴²، وخدم حسان، تنتقل في الغرف والقيعان، تنقل الولدان في غرف الجنان.

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدا فيه²⁴³ الإهاب، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم يرَ أمامه غير خادمة (بلال)، وهو خصي أسود من ذوي الأسنان، رباه صغيراً وكفله كبيراً، وكان يجمع بين فصيلتي الذكاء والوفاء، فأشار إليه

²³⁷ جمع كله، بالكسر: وهي الست الرقيق.

²³⁸ الحَجَلَة: سائر كالثياب والستور للعروس.و- ستر يضرب للعروس في جوف البيت. الجمع حَجَلٌ، وحجَالٌ.

²³⁹ التمثال: ما نحت من حجر أو صنع من نحاس ونحوه يحاكي به خَلْق من الطبيعة، أو يمثل به معنى يكون رمزاً له.

²⁴⁰ التهاويل: النقوش والصور، لأنها تهول من ينظر إليها.

²⁴¹ المقصورة من النساء: المنعمة في بيت لا تتركه لتعمل. الجمع مقصورات.و- من الدار والمسرح: حجرة خاصة مفصولة عن الغرف المجاورة فوق الطابق الأرضي.

²⁴² الخريدة: الخريد.و- اللؤلؤة لم تثقب.

²⁴³ الغداف: الغراب الأسود، وليلة غدا فيه بشيئة به.

إشارة الواله الملتلف أن يأتيه بجرعة²⁴⁴ ماء، فجاء بها، فتساند على نفسه حتى شرب، وكان الماء قد حل عقدة لسانه، فسأله: في أي ساعة من ساعات الليل نحنُ يا بلال؟ فأجابه: نحنُ في الهزيع²⁴⁵ الأخير يا سيدي، فقال: ألم تعد سيدتك إلى الآن؟ قال: لا، فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلم كأنها يحدث نفسه ويقول: أنها تعلم أني مريض، وأني في حاجة إلى من يسهر بجانبني ويتعهد أمري ويرفه²⁴⁶ عني بعض ما أعالجه، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي وأقوم عليّ منها، وأين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الإيمان عليه؟ أين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومساءها وبكورها²⁴⁷ واصائلها؟ أين النعيم الذي كنت اقلبها في أعطافه والعيش الذي كنت ارشفها²⁴⁸ كؤوسه؟ إن علمت أني أصبحت بين حياة لا أرجوها، وموت لا أجد السبيل إليه برمت²⁴⁹ بي وستثقلت ظلي واستبطأت أجلي واستطالت ضجعتي، فهي تفر من وجهي كل ليلة إلى، حيث تجد

²⁴⁴ الجرعة من الماء: حسوة منه ملء الفم، الجمع جُرْعٌ.

²⁴⁵ الهزيع من الليل: نحو الثلث أو الربع الأول منه.

²⁴⁶ ارفه عنه: نفس عنه وخفف.

²⁴⁷ الباكور: أول ما يدرك من الثمر.و- المعجل من كل شيء.

²⁴⁸ الرشف: البقية اليسيرة من السائل ترشف بالشفاه. ويقال: حوض رشفٌ: لا ماء فيه.

²⁴⁹ برم به: سئمه و ضجر منه.

لذات العيش ومواطن السرور، آه من العيش ما أطوله، وآه من الموت ما أبعده! ما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه. فعاودته الحمى²⁵⁰ وإلى رأسه بنارها غليان القدر²⁵¹ بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعاً مريرة. بيد أنه لشقائه لم يأتِ على الجرعة الأخيرة منها.

أفاق من غشيته مرة ثانية. فلم يرَ بجانبه تلك التي تسيل نفسه حشرات²⁵² عليها، فسأله الخادم: ألا تعلم أين ذهب سيدتك يا بلال؟ قال: خير لك ألا تنتظرها يا مولاي، وألا تلومها في بعدها عنك، فإن لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج ليلة لتتقاضاه، قال: ما عرفت قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيئاً من ذلك، ومتى كان الدائن²⁵³ يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل؟ وهل أعيائها أن تجد من يقوم لها بذلك، فهي تتولاه بنفسها؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها إليها سنة كاملة! قال: إن بينها وبين غريمها²⁵⁴ صكاً²⁵⁵ مكتوباً أن يؤدي ما عليه الدين أقساطاً في كل

²⁵⁰ الحُمى: علّة يستحرج بها الجسم، وهي أنواع: التيفود، التيفوس، الدق، الصفراء القرمزية.

²⁵¹ القدر: إناء يطبخ فيه (مؤنثة، وقد تذكر).

²⁵² الحسرة: شدة التلهف والحزن.

²⁵³ الدائن: كل من أعطى فهو دائن.

²⁵⁴ الغريم: الدائن. الجمع غرماء.

ليلة قسط، على أن تتناولها بيدها وإن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي، قال: ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا بأعجب من هذا الصك، ومن هو غريمها؟ قال: أنت يا سيدي. فنظر إليه نظرة الحائر المشدوه²⁵⁶ وقال: إني أكاد أجن لغرابة ما أسمع، واحسب أنك هاذ فيما تقول أو هازئ. فندنا منه الخادم وقال: والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها، وكأس تشربها، وملعب تجرر فيها أذيالك، ومراقص تهتك فيها أموالك، تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة، تتقلب على أحر من الجمر شوقاً إليك ووجداً عليك، فلا تعود إليها إلا إذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح، إنك سلبتها تلك الليالي السابقة فأصبحت غريمها فيها، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها، ذلك هو دينها وهذا غريمها، ألا تذكر أنك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقه، ويأبى إلا أن يأخذه عيناً بعين ونقداً بنقد، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته،

²⁵⁵ الصك: وثيقة بمال أو نحوه.

²⁵⁶ المشدوه: المدهوش.

ويقبض²⁵⁷ مضجعك كما تقض مضجعه، وأنا أعيدك بعد ذلك وإنصافك أن تكون من رواة الدين، أو تكون من الظالمين.

قال حسبك²⁵⁸ يا بلال . فقد بلغت مني، وأن لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي، فادع لي ولدي، قال: لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن، قال: لا أذكر أني بعثته في وجه ما، وأين ذهب، قال: ذهب إلى الحانة²⁵⁹ التي يختلف إليها، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعاً إليك أن تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك، فكنت تعرض عني أعراض من يرى أن تدليل الولد وترفيهه وإرخاء العنان²⁶⁰ له عنوان من عناوين العظمة ومظهر من مظاهر الأبهة²⁶¹ والجلال، كنت أسألك أن تعلمه العلم وان تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم إنما هو الذي يرتزق منه، وأن ولدك عن ذلك من الأغنياء، فلا تشك من عمل يديك، ولا تبك من جناية

²⁵⁷ أقض مضجعه: جعله خشناً.

²⁵⁸ قال حسبني.و- الشيء: كفى.

²⁵⁹ الحانوت: دكان الخمار.و- محل التجارة. الجمع حوانيت.

²⁶⁰ العنان: يقال: فلان طويل العنان: شريف عظيم السؤدد. وفلان قصير العنان: قليل الخير.

²⁶¹ الأبهة: العظمة والرواء. ويقال: عليه أبهة السلطان: عظمته ورواؤه.

نفسك عليك، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة، وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه الساعة من الليل، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه.

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه²⁶² واشتعل المبيض في مسوده، وإذا صوت الناعورة²⁶³ يرن في بستان القصر رنين الثكلي²⁶⁴ فقدت واحدها، فقال السيد: هات يدك يا بلال واحمليني إلى جوار النافذة لأروّج عن نفسي بعض ما ألم بها، أو أودع إلى جانبها نسيمات الحياة، ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة: فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجته جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة، رآهما متحابين متعاطفين، لا يتعاتبان ولا يتشاحنان²⁶⁵ ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً، رآهما قويين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافياً متسلسلاً وكأنهما يحاولان أن

²⁶² الخضاب: ما يخضب به من حنّاء ونحوه.

²⁶³ الناعورة: دولاب ذو دلاءٍ أو نحوها، يدور بدفع الماء أو جر الماشية، فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل.

الجمع نواعير.

²⁶⁴ الثكل: فقد الحبيب.

²⁶⁵ من المشاحنة: وهي المخاصمة والمجادلة.

يخرجان من أهلهما²⁶⁶ مرحاً ونشاطاً، رآهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة
الملبس وجشونة²⁶⁷ المطعم فلا يتشبهان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ
المطل عليهما نظرات الهم والحسرة، سمعهما يتحدثان فأصغى إليهما فإذا البستاني
يقول لزوجته: والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه، وآتيته وخرثيه²⁶⁸، على
أن تكون لي الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران،
على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والأحزان. فقالت: لا أحسب أن سيدنا
ينجو من خطر هذا المرض، فقد مر به على حاله تلك عام كامل، وهو يزداد كل يوم
ضعفاً ونحولاً، قال: قد علمت أن الطبيب قد نفذ يده من الرجاء فيه اضمر اليأس
منه، ولا عجب في ذلك، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى
قتلها : قالت: ما أشقاه، أكانت نفسه عدوة إليه فجنى عليها هذا الشقاء، وذلك
البلاء، قال: ما كان عدواً لنفسه، ولا كانت نفسه عدوة إليه، ولكنه كان رجلاً جاهلاً
مغوراً، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه أخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء
فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها

²⁶⁶ الإهاب: الجلد.

²⁶⁷ جشونة المطعم: خشونته.

²⁶⁸ الخرثي: أثاث البيت.

لنفسه، قالت: أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده؟ قال: أعلم أنه سيكون لولده، قالت: ولكنني أعلم أنه سيكون لفلان، قال: إن فلاناً ليس وريث السيد، بل صديقه، قالت: إنه ليس بصديق السيد، بل صديق السيدة، فهو خاطب زوجته قبل وفاته، وزوجها بعد مماته.

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً، وسقط عن كرسيه وهو يقول: أشهد أنني من الأشقياء، ومازال في غشيته تلك حتى صحا صحوّة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المولم.

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأى زوجته تضاحك ترباً من أترابها²⁶⁹ وتغمزها وبطرفها أن قد حان ودنا أجله، ورأى صديقه أو ولي عهده²⁷⁰ يأمر في القصر وينهي، ويتصرف تصرف السيد المطاع، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت، ويعد عدته للانتقال من القصر إلى القبر، وهنا سمع كأن هاتفاً يهتف به من السماء ويقول: أيها الرجل، لو وفيت لزوجك لوفت لك، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك، فأغمض عينيه وهو يقول ((فلتكن مشيئة الله)).

²⁶⁹ الترب: المماثل في السن. وأكثر ما يستعمل في المؤنث. الجمع أتراب.

²⁷⁰ ولي العهد: من يسمى ليكون وارثاً للملك والسلطان.

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه
وقصره:

رب ركب²⁷¹ قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفسدك قومك

قال الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في (النفوس):

"النفوس بيوت أصحابها، فإذا طرقتموها، فاطرقوها برفق".

أيُّها المجرم القاتل الذي يسلب الخزائن نفائسها²⁷²، والأجسام أرواحها، لستُ أحمل عليك
من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي
قسا في حكمه عليك، لأنني اعتقد أن لك شركاء في جريمتك. فلا بد لي من أن أنصفك، وإن
كنت لا أستطيع أن أنفَعك. شريكك في الجريمة أبوك، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك، ولم
يحل بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيراً ما كان يخبِخ²⁷³ لك إذا رآك هجمت على

²⁷¹ الركبُ: الراكبون، العشرة فما فوق، الجمع أركب وركوب.

²⁷² النفيس: المال الكثير. وشيءٌ نفيس: عظيم القيمة يرغب فيه.

²⁷³ بخبِخ: قال له ((بخ بخ)).

تربك²⁷⁴ وضربته، ويصفق لك إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، أو اختطاف لقمة من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهذك بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي أنت معلق به اليوم، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات، ويصعد الزفرات، ولو عرف أنها جريمته، وأنها غرس يمينه لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على أن لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك²⁷⁵ في يده.

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي أغراك بها، مهد لك السبيل إليها، فقد كان يسميك شجاعاً إذا قتلت، وذكياً فطناً²⁷⁶ إذا سرقت، وعالمًا إذا احتلت، وعاقلاً إذا خدعت، وكان يهابك هيبة للقاتحين، ويجلك إجلاله للفاضلين، وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك في مرآته وجهاً أبيض ناصعاً، فتتمنى لو أن دام لك هذا الجمال، ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل

²⁷⁴ تقدم بيان المعنى.

²⁷⁵ الجامعة: الغل.

²⁷⁶ الفطنة: قوة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه، والفطنة: الفطنة.و- الحذق والمهارة. الجمع فطنٌ.

لك جريمته بصورتها الشوهاء، وهنالك ربما وددت جدد²⁷⁷ الأنف لو طواك بطن الأرض عنها وحالت المنية²⁷⁸ بينك وبينها.

شريكك في الجريمة حكومتك، لأنها كانت تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم ما سينتهي إليه أمرك فلا تضرب على يدك، ولا تعترض سبيلك، ولو أنها فعلت لما اجترمت، وما وصلت إلى ما إليه وصلت.

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير²⁷⁹، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل²⁸⁰ الأرض ومخا²⁸¹ رماها، وأن تعديك على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك، وأن تحسن تأديبك في الصغيرة قبل أن تصل إلى الكبيرة، ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نوماً طويلاً حتى إذا فعلت فعلتك

²⁷⁷ جدعه - جدعاً: قطع أنفه، أو طرفاً من أطرافه. ويقال: جدع أنفه.

²⁷⁸ المنية: الموت.

²⁷⁹ الماخور: بيت الريبة. و- مجمع أهل الفسق والفساد. الجمع مواخر، ومواخير.

²⁸⁰ المجَّهَل: المفازة لا أعلام فيها، ويقال: أرض مجهل: لا يهتدى فيها. الجمع مجاهل.

²⁸¹ المخرم: الطريق في الجبل أو الرمل. الجمع مخارم. وميمٌ ذات مخارم: ذات مخارج. ومخارم الليل: أوائله.

استيقظت على صوت صراخ المقتول، وشمרת عن ساعدها²⁸² لتمثل منظرًا من مناظر

الشجاعة الكاذبة، فاستصرخت جندها، واستنصرت قوتها واعدت جذعها وجلادها، وكان

كل ما فعلت أنها أعدمتك حياتك.

هؤلاء شركاؤك في الجريمة، واقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك

في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك، ولكني لا أستطيع أن أنفعل.

فيها أيُّها القَتيل المظلوم: رحمة الله عليك.

* * *

²⁸² الساعد: ما بين المرفق والكف من أعلى. ويقال شد الله على ساعدك. وساعد القوم رئيسهم.

الصدق والكذب

قال سقراط في (الصدق): " ليس من الضروري أن يكون كلامي مقبولاً، وإنما يجب عليّ فيه أن يكون صادقاً".

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء.

يا صاحب النظرات:

سمعت بالصدق، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر، وسمعت بالكذب، وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب، وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من آدم إلى اليوم، وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والأصل الذي يتفرع عنه جميع الأخلاق الشريفة، والصفات الكريمة، وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله، وعلق به من نفسه. سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبقَ في نفسي ريب²⁸³ في أن ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء، وعيشي من الضنك²⁸⁴، وحياتي من الهموم و الأكدار، إنما جرّه عليّ شؤم الكذب، وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق، وأسلم عاقبة، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل، ونزعه من نزعات

²⁸³ الرب: الظن و الشك والتهمة.و- الحاجة.و- صرف الدهر. وريب المنون: حوادث الدهر.

²⁸⁴ الضنك: الضيق من كل شيء (يستوي فيه المذكر والمؤنث).

الشیطان، فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت، وأعددت لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهت وجهي إلى الله تعالى وسألته أن يمدني بمعونته ونصره. ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفها بعد ذلك العهد، وما رأيته من آثارها ونتائجها.

الموقف الأول: جلستُ في حانوتي فما وقف بي مساوم إلا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا يستطيع أن أعد نفسي رابحاً إذا تجاوزت عن بعضه، فيأبى إلا الحطيطة²⁸⁵ فأبأها عليه، فينصرف عني استثقلاً للثمن واستعظماً لقدره، وما هو إلا الربح الذي اعتدت أن أخذه منه في مثل تلك الصفقة، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح، فلما صدقته عنه أعظمه وأنصرف عني إلى سواي، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلني الليل، ولم يفتح الله عليّ بقوت²⁸⁶ يومي، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالات فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق.

الموقف الثاني: جلستُ في مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضيقة والمعروفين بمشايع الطرق، وقد حف به جماعة من عبده

²⁸⁵ الحطيطة: ما يحط من الثمن.

²⁸⁶ القوت : ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. الجمع أفوات.

وسدنة²⁸⁷ هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً يذهب فيه إلى أنه القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه²⁸⁸، وإعراض عن كل سعي يؤدي إلى أية غاية، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى انه سمعها من شيخه، أو قرأها في كتابه، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث ((لو توكلتم على الله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً²⁸⁹ وتروح بطاناً²⁹⁰)). فقلتُ له، وقد أخذ الغيظ²⁹¹ من نفسي مأخذه: يا شيخ: أردت أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها، أتعمد إلى حديث يستدل به رواته على وجوب السعي والعمل فتستدل به على البطالة والكسل، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً إلا بعد أن أمرها بالغدو، وهي التي ترويهما القطرة، وتشبعها الحبة فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي، وهو من لا تفنى مطالبه، ولا تنتهي رغباته؟ أيُّها القوم، إنكم تقولون

²⁸⁷ السادن: خادم الكعبة، ويقال هو سادن فلان وآذنه: لحاجبه. الجمع سدنة.

²⁸⁸ الغارب: الكاهل ويقال: للإنسان: حبلك على غاربك: اذهب حيث شئت. وهو من كنايةات الطلاق أيضاً. و- أعلى كل شيء.

²⁸⁹ الأخمص: باطن القدم الذي يتجافي عن الأرض.

²⁹⁰ البطان: حزام يشد على البطن. ويقال: فلان عريض البطن: رخی البال.

²⁹¹ الغيظ: تغير يلحق الإنسان من مكروه يصيبه.

بألستكم ما ليس في قلوبكم²⁹²، إنكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين²⁹³ فسميتم ما أنتم فيه توكلاً، وما هو إلا العجز الفاضح، والإسفاف²⁹⁴ الديني.

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ، ونادى في قوة: أن أخرجوا هذا

الزنديق²⁹⁵ الملحد من مجلسي، فتألبوا علي تألبهم على قصاع²⁹⁶ الثريد²⁹⁷، وأوسعوني لطماً²⁹⁸ وصفعاً²⁹⁹، ثم رموا بي خارج الباب،

²⁹² تأمل، يحكى أن أعرابياً نزل بحاتم الطائي، فبات عنده جائعاً، فلما كان في السحر، ركب وانصرف، فتقدمه حاتم، فلما خرج من البيوت لقيه متنكراً فقال له: أين كان مبيتك البارحة؟ فقال: عند حاتم. فقال: فكيف كان. فقال: خير مبيت نحر لي ناقة فأطعمني اللحم وسقاني الخمر، وعلف راحلتي، وسرّ من عنده بخير حال.

فقال له: أنا حاتم. والله لا تبرح حتى ترى ما وصفت. فردّه وقال له: ما حملك على الكذب؟ قال الأعرابي: إن الناس كلهم يثنون عليك بالجد، فلو قلت شراً لكذبوني، فرجعت مضطراً إلى قولهم إبقاء على نفسي لا عليك.

²⁹³ الوصم: العار. و- العيب. و- العقدة في العود. والوصمة: الفترة في الجسد. و- اليمين في معصية.

²⁹⁴ السفاف: الرديء الحقيق من كل شيء.

²⁹⁵ الزندقة: القول بأزلية العالم، وأطلق على الزردشتية، والمناوية وغيرهم من الثنوية، وتوسع فيه فأطلق على كل شاك، أو ضال، أو ملحد. والزنديق: من يؤمن بالزندقة. (معرب: زنده كرد). الجمع زناديقي، وزنادقة.

فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رموني بالنظر الشرر، وعادوا بالله من رؤيتي، كما يعوذون به من الشيطان الرجيم.

الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيدي، أني كنت أبغض زوجتي بغضاً يتصدع له القلب، غير أني كنت أصانعها وأتودد إليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي، مداره لها وإبقاء على ما تحويه يدي من صباغة مال كانت لها، فرأيت أن ذلك اكذب الكذب وأقبحه، فأليت على نفسي ألا أسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريري³⁰⁰، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسيل³⁰¹ العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني وأظلم ما بيني وبينها، فما هي إلا

²⁹⁶ القصعة: وعاء يؤكل فيه ويثرد، وكان يتخذ من الخشب غالباً. الجمع قساع وقصع، وقصعات.

²⁹⁷ الثريد: ما يثرد من الخبز.و- زيد الخمر.

²⁹⁸ لظمة- لظماً: ضرب خده أو صفحة جسده بالكف مبسوطه، أو بباطن كفه. يقال لظمت المرأة وجهها. و-

الشيء بالشيء: ألصقه به.و- خلطه به.

²⁹⁹ صفعه- صفعاً: ضربه بكفه مبسوطه.

³⁰⁰ تقدم بيان المعنى.

³⁰¹ السلسيل: الشراب السهل المرور في الحلق لعذوبته.و- الخمر. وسلسيل: اسم عين في الجنة، أو وصف لكل

عين عذبة، سريعة الجريان. الجمع سلاسب، وسلاسيب.

عشية أو ضحاها³⁰²، حتى وهنت³⁰³ تلك العقدة، وانحل ذلك الوثاق³⁰⁴، وختمت سورة
الفراق بآية الطلاق.

الموقف الرابع: حضرت مجتمعاً يضم بين حاشيته³⁰⁵ جماعة من الفضوليين
الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس وتتبع
عثراتهم³⁰⁶، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم، ويتغلغلوا³⁰⁷ في أطواء³⁰⁸
سرائرهم³⁰⁹، ويغالون في ذلك مغالة الكيميائي في تحليله وتركيبه، فرأيتهم
يتناولون بالسنتهم، رجلاً عظيماً من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين
السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمنته إخلاصه، أو وقف المواقف

³⁰² الضحى: ضوء الشمس. و- ارتفاع النهار وامتداده. و- وقت هذا الارتفاع أو الامتداد. ويقال: ما لكلامه ضحى: ماله بيان.

³⁰³ الوهن: الضعف وذبول الحيوية. و- نحو نصف الليل أو بعد ساعة منه.

³⁰⁴ الوثاق: اسم من الإيثاق. و- ما يشد به، كالحبل وغيره.

³⁰⁵ الحاشية: من كل شيء: جانبه وطره. و- الأهل والخاصة، يقال: هؤلاء حاشيته. و- ما علق على الكتاب من زيادات وإيضاح. الجمع حواشٍ. ويقال: عيش رقيق الحواشي: لَيِّن. ورجل رقيق الحواشي: لطيف الصحبة.

³⁰⁶ العثرة: الزلة.

³⁰⁷ غلغل: أسرع في سيره. و- الشيء في الشيء: أدخله فيه حتى يلتبس به ويصير من جملته.

³⁰⁸ أطواء الثوب: طرائفه ومكاسر طيه.

³⁰⁹ السَّريرة: ما يُكْتَمُ ويُسرُّ. الجمع سرائر.

المشهوره وقوفه، أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام ما لاقاه، سمعتهم يسمونه خائناً فوا لله لأنّ تقع السماء على الأرض أحب إليّ من أن يتهم البريء أو يجازي المحسن سوءاً على إحسانه، سمعت ما لم أملك نفسي معه، فقلت يا قوم، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً³¹⁰ ثم لا تزالون عبيد الأوهام، أسرى الخيالات، سراعاً إلى كل داع، سعادة مع كل ساع، تنظرون بغير روية، وتحكمون بغير علم، إنكم بعلمكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه، وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم، وتشبوطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم، أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم، أن نراكم طعمه كل آكل، ولعبة كل لاعب، ويستهوكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها الممرضعات أطفالهن ثم يدعوكم إلى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم، والثاني بغضكم وموجدتكم. خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم، فأرادوا شراً بي! فما خلصت من بينهم إلا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي!

الموقف الخامس: قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً³¹¹ كبيراً كنت ذاهباً إلى موعد لا بد لي من الوفاء به، فرض عليّ أن

³¹⁰ يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف.

³¹¹ الطامور : الصحيفة. الجمع طوامير.

يسمعني قصيدة من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريفه³¹² وتليده، فاستعفيه بعد أن كاشفته بعذري فأني، فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً، وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة، حتى تمنيت أنه لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليرحني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع، وكلما أتى على بيت منها أقبل عليّ بوجهه، وأطال النظر في وجهي، وحدّق³¹³ في عيني، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكأس فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً، ثم وقف وقال: هذا هو القسم الأول من أقسام القصيدة، فقلت، وكم عدد أقسامها يرحمك الله؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها، قلت: أتأذن لي أن أقول لك يا سيدي أن شعرك قبيح، وأقبح من طوله، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الأجش³¹⁴، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل عليّ فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي إلا لأجله، فتلقاني بضربه بجمع

³¹² الطريف: الطيب النادر. - الحديث المستحسن. - والمستفاد من المال حديثاً. ويقابله التليد أو التالد.

³¹³ حدّق به: حدّق. - إليه: شدّد النظر.

³¹⁴ الجشش: صوت غليظ فيه بحة، وهو من أصوات الألعان.

يده في صدري، فرفعت عصاي وضربت به على رأسه ضربه ما أردت بها يعلم الله إلا أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشياً عليه. وسقطت القصيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها، وأرحت نفسي منها، وكان الشرطي قد وصل إلينا فاحتملنا جميعاً إلى المخفر³¹⁵ ثم إلى السجن حيث اكتب إليك كتابي هذا. فيا صاحب النظرات أفتني في أمري، وأنر ظلمة نفسي، فقد أشكل عليّ الأمر، وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظناً، بعد ما رأيت أنني ما وقفت موقفه في حياتي إلا خمس مرات، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة أخرى، ذلك ما أقاسية اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف الأقسام.

أيُّها السجين:

كتبت إليّ. مسح الله ما بك، وألهمت صواب الرأي في حالك، تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره، وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة³¹⁶ الرذائل لا فضيلة الفضائل، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل³¹⁷ إلى نفسك، وان يبلغ

³¹⁵ المخفر: مكان الخفارة والحراسة، الجمع مخافر. أما الخفير: الحارس. الجمع خُفراء.

³¹⁶ الأرذل: الدون الخسيس، أو الرديء من كل شيء. الجمع أراذل. وأرذل العمر: آخره في حال الكبر والعجز والخرف.

³¹⁷ السبيل، الطريق. و- ما وضع منه (يذكر ويؤنث). وابن السبيل: المسافر المنقطع به وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به.

بك الجزع³¹⁸ من نكبات³¹⁹ العيش وضربات الأيام مبلغاً يذهب برشدك، ويطير بلبك³²⁰،

فما أنت بأول صادق في الأرض ولا بأول من لقي في سبيل الصدق شراً، وكابد ضراً.

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال.

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنما هي حاله من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال.

إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله، أو يرفه بها عيشه، ويحتقرها ويزدريها، لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع. ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به أخلاقه فإن اتسع عيشه اطمأن إليها، وإن ضاق أساء الظن بها، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء،

وبين الارذلين كثيراً من ذوي النعمة والثراء! لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن ينزل من نفوس

³¹⁸ جزع- جزعاً، وجزوعاً: لم يصبر على ما نزل به. وفي المثل: ((من جزع اليوم من الشر ظلم)): يضرب عند صلاح

الأمر بعد فساد، أي لا شرَّ يجزع منه اليوم.

³¹⁹ النكبة: المصيبة. الجمع نكبات.

³²⁰ اللُّبُّ من كل شيء: خالصه وخياره. و- نفسه وحقيقته. و- العقل.

الناس منازل الحب والإكرام، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده أسباب العيش ويملك يناييعه: سواد أبله³²¹ ساذج³²² يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب إليه، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش، وقلب يحمل بغض القلوب ليلبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليلبلغ غايته من الفوز والانتصار.

الصدق جنة حفت بالمكاره، فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب³²³ فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية.

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال، وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة³²⁴ من الآفات توغر طريقها وتبعد منالها الأعلى أيدي الصابرين

³²¹ بلة- بلها، وبلاهة: ضعف عقله، وغلبت عليه الغفلة، فهو أبله، وهي بلهاء. الجمع بُلْه.

³²² السَّاذج: الخالص غير المشوب وغير المنقوش. وهي ساذجة. يقال: حجة ساذجة: غير بالغة (معرب: فارسيته: سادة).

³²³ الأرب: الحاجة، أو الحاجة الشديدة.و- البغية والأمنية . يقال: بلغ أربه، ونال أربه.

³²⁴ الآفة: الجبان .و- القدر يتأفف منه.

المخلصين، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون، للصادقين وهم الأقلون.

أتريد أيُّها الرجل أن تُسمى صادقاً، وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر، وأن يوافيك المجد طائعاً مذعناً³²⁵ دون أن تبذل في سبيله شيئاً من مالك أو راحتك؟ إنك إن أردت ذلك أو قدرته في نفسك، تظلم الفضيلة ظلماً بيناً وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال.

أيحزنك انصراف الأغنياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والإلحاد أو المروق والخيانة، وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلك، في سبيل إحراز ما أحرزت، فما ندموا ولا حزنوا؟

أيُّها السجين الشريف:

هنيئاً لك السجن الذي تكابده، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله، وهنيئاً للعيش الذي تعالج همومه، فو الله لأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء، ويسمونهم عظماء.

لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن به، وكن احرص الناس على ولاء مودته، وإياك أن يخدعك عنه خادع، واصبر قليلاً يثمر لك

³²⁵ ذعن - ذعناً: خضع ودلّ.

غرسه ويمتد عليك ظله، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة³²⁶ ما لو بذل فيه
ذوو التيجان تيجانهم، وأرباب الكنوز كنوزهم، لما استطاعوا إليه سبيلاً.

الحرية

قال بيتهوفن في (الحياة): " الحياة أنشودة جميلة، فاختر لها الصوت الجميل".
استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هره³²⁷ تموء³²⁸. بجانب فراشي وتمسح
بي، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً، فرابني أمرها، وأهمني همها وقلت: لعلها
جائعة، فنهضت، وأحضرت لها طعاماً فعافته، وانصرفت عنه. فقلت: لعلها
ظمآن³²⁹، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إليّ نظرات تنطق بما
تشتمل عليها نفسي من الآلام والأحزان، فأثر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً،
حتى تمنيت أن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وأخرج

³²⁶ الغبطة: أن يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنه.و- حسن الحال والمسرة.

³²⁷ الهر: القط. الجمع هررة. والأنثى: هرة.

³²⁸ المواء: صوت الهرة.

³²⁹ ظمىء- ظمأ، وظماء، وظماءة: عطش أو اشتد عطشه.

كربتها³³⁰، وكان باب الغرفة مرتجاً، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصق بي كما رأيتني اتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء³³¹، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدوا في سبيلها، فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي، وأنشئت أفكر في أمر هذه الهرة، وأعجبت لشأنها وأقول: ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح ببقائها؟ أجل. أنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرعها³³² ورجاءها وتمسحها وإلحاحها إلا سعيّاً وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بهذه الهرة المحبوسة في الغرفة، والوحش³³³ المعتقل في القفص، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص أو يتلمس السبيل إلى النجاة

³³⁰ الكَرْبُ: الحزن والغم يأخذ بالنفس. الجمع كرب.

³³¹ الفضاء: ما اتسع من الأرض. و- الخالي من الأرض. و- من الدار: ما اتسع من الأرض أمامها. و- ما بين الكواكب والنجوم من مسافات لا يعلمها إلا الله.

³³² تضرع إليه، وله: تذلل وخضع.

³³³ الوحش: جمع وحش، وهو مالا يستأنس من دواب البر (يذكر ويؤنث). الجمع وحوش، ووحشان.

مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وإسقامه من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها: أن يكون الحيوان الأعجم³³⁴ أوسع ميدان في الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ناطقاً مدركاً؟.

يخلق الطير في الجو، ويسبح السمك في البحر، ويهيم الوحش في الأودية والجبال، ويعيش الإنسان المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهدي³³⁵ إلى اللحد³³⁶. صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالاً³³⁷، وسماها تارة ناموساً³³⁸ وأخرى قانوناً، ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهره حريته باسم الناموس والنظام.

³³⁴ الأعجم: الأخرس. وموَّج أعجم: ليس له رشاش ولا صوت.

³³⁵ المهدي: السرير يهياً للصبى ويؤطأ لينام فيه.

³³⁶ اللحد: الشق يكون في جانب القبر للميت.

³³⁷ الغل: طوق من حديد أو جلد يُجعل في عنق الأسير أو المجرم في أيديهما . الجمع أغلال.

وشدة العطش وحرارته.

³³⁸ الناموس: صاحب سر الرجل، الذي يطلعه دون غيره على باطن أمره.و- جبريل.و- والوحي .و- القانون أو الشريعة.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقاً حذراً، مروع القلب، مرتعد الفرائض يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات وهمه وخياله، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه، فويل له ما أكثر جهله! وويح³³⁹ له ما اشد حمقه؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟

ليست جناية³⁴⁰ المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية، ولا يذرف³⁴¹ دمعة واحدة عليها. لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وإدراك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود، لانتحر كما ينتحر البلبل³⁴² إذا حبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية، ولا تخلص إليه نسمة من نسوماتها.

³³⁹ وَيَحُّ: كلمة ترحم وتوجع. وقيل: هي بمعنى ويل. و- يقال: ويحُّ له، وويحاً له، وويحه.
³⁴⁰ الجناية: في القانون: الجريمة التي يعاقب عليها القانون أساساً بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو الأشغال الشاقة المؤقتة. الجمع جنايا.

³⁴¹ ذرف الدمع: سال. و- العين: جرى دمعها. والعين دمعها: أسالته. فهو مذروف، وذريف.
³⁴² البلبل: طائر صغير حسن الصوت من فصيلة الجواثم، ويضرب به المثل في حسن الصوت.

كان في مبدأ خلقه يمشي عرياناً، أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظلة تقيه لفحة الرَّمضاء³⁴³، أو هبة النكباء³⁴⁴، فوضعه في القمّاط³⁴⁵ كما يضعون الطفل، وكفنوه كما يكفنون الموتى، وقالوا: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملئوا قلبه خوفاً من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي، وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن، إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات. لا سبيل إلى السعادة في الحياة. إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس. الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

³⁴³ الرَّمضاء: شدة الحر. - الأرض أو الحجارة التي حميت من شدة وقع الشمس.

³⁴⁴ النكباء: ريحٌ وانحرفت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال. الجمع نكبٌ.

³⁴⁵ القمّاط: الحبل ونحوه ويُقْمَط به. - خرقة عريضة يلف بها المولود.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً، أو طارئاً غريباً، وإنما هي فطرته³⁴⁶ التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار. إن الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوّل، ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع مع البشرية، فإن ظفر بها فلامنّه لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده.

* * *

³⁴⁶ الفطرة: الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه.و- الطبيعة السليمة لم تشب بعيب.

الإنصاف

قال الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) في (الصديق) : " لا تقطع صديقاً وإن كفر، ولا تركن إلى عدو وإن شكر ".

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه، ثم هجمت منه على ما لم يحل في نظرك، ولم يتفق مع ما علمت من حاله، وما أطرده عندك من أعماله، أو كان لك عدو تدم طِباعه، وتنقم منه شؤونه، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة³⁴⁷ التي حمدتها، عدك الناس متلونا أو مخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تدم بالأمس، وتذم في ساعة من تمدح في أخرى، وقالوا: إنك تظهر مالا تضر، وتُخفي غير الذي تبدي، ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً، وإنصافاً لا خِداً، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف، فعنيت بتعهد أخلاقه، وتفقد خلاله، لإصلاح ما فسد من الأولى واعوج من الأخرى.

إن صديقك الذي يبسم لك في حالي رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممن يغتبط بمودته، أو يوثق

³⁴⁷ الخصلة.

بصداقته، لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك،
وتصدقك عن زينك وشينك وحلوك ومرك، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه، فلا
يرى غير ما تريد أن ترى نفسه، لاما لا يجب أن تراه، وإما منافق مخادع قد علم أن
هواك في الصمت عن عيوبك وتجريير الذبول، فجارك فيما تريد، ليبلغ منك ما تريد.
فها أنت ذا ترى أن الناس يعكسون القضايا، ويقبلون الحقائق، فيسمون الصادق كاذباً،
والكاذب صادقاً، ولكن الناس لا يعلمون.

الصيد

قال روبندرونات طاغور: (السعادة): "السعادة عندما تتوافق الأقوال مع الأفعال ".

حدّث أحد الأصدقاء قال: بينما أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل عليّ رجل صيّاد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها عليّ فلم أساومه فيها، بل نقدته الثمن الذي أراه، فأخذه شاكراً متهللاً وقال: هذه هي المرة الأولى الذي أخذت فيها الثمن الذي اقترحت، أحسن الله إليك كما أحسنت اليّ وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك، فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في أن تتفتح لها أبواب السماء المغلقة دوني، وعجبت أن يهتدي شيخ عامي إلى معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة، وهي أن للسعادة النفسية شأنًا غير شأن السعادة المادية، فقلت له: يا شيخ، وهل توجد سعادة غير المال؟ فابتسم ابتسامة هادئة ومؤثرة وقال: لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس، لأنني أفقر الناس، قلت: هل تُعد نفسك سعيداً؟ قال: نعم، لأنني قانع برزقي مغتبط بعيثي، لا أحزن على فائت من العيش، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطعم من المطاعم، فمن أي باب يخلص الشقاء إلى قلبي؟ قلت: أيُّها الرجل، أين يذهب بك؟ ما أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله، كيف تعد نفسك

سعيداً وأنت حافٍ غير منتعل، وعارٍ إلا قليلاً من الأسمال³⁴⁸ البالية، والأطمار³⁴⁹

السحيقة؟ قال: إن كانت السعادة لذة النفس وراحتها، وكان الشقاء ألمها وعناءها، فأنا سعيد، لأنني لا أجد في رثاءة ملبسي، ولا في خشونة عيشي، ما يؤلّد لي ألماً. أو يسبب لي همّاً، وإن كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك، فأنا لا أفهمها إلا كذلك، قلت: ألا يحزنك النظر إلى الأغنياء في أثاثهم ورياشهم، وقصورهم ومراكبهم، وخدمهم وخيولهم، ومطعمهم ومشربهم؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم؟ قال: إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني وعيونها عندي أنني لا أجد أصحابها قد نالوا من السعادة بوجودها أكثر مما نلته بفقدانها.

هذه المطاعم التي تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فأنا لا أذكر أنني بتُّ ليلة في حياتي جائعاً، وإن كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فأنا لا أكل إلا إذا جعت، فأجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب أن شهوات الطعام ما يفضلها، أما القصور فإنّ لدي كوخاً صغيراً لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فأقرع السن على أن لم يكن قصرّاً كبيراً، وإن كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي أن أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر أذهب بها إلى

³⁴⁸ السَّمَلُ: ثوبٌ سَمِلَ: خُلِقَ بال.و- بقية الماء في الحوض ونحوه. الجمع أسمالٌ.

³⁴⁹ الطَّمَرُ: الثوب الخَلَقَ البالي. الجمع أطمارٌ.

شاطئ النهر فأرى منظر السماء والماء، والأشعة البيضاء، والمروج الخضراء، فما هي إلا لفظة الجيد أن يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب أو قطعة من لهب، فلا يبعد عن خط الأفق³⁵⁰ ميلاً³⁵¹ أو ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، أو درّه المتحدر، فإذا تجلّى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدهوها، ملك عليّ شعوري ووجداني، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة، حتى أحب أن أعود إلى نفسي إلى يوم النشور، ولا أزال هكذا هائماً في أحلامي حتى أشعر بجذبه قوية في يدي، فأنتبه فإذا السمك في الشبكة يضطرب، وما اضطرابه إلا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح، وبات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً، فلا أجد له شبيهاً في حالتيه إلا الفقراء والأغنياء. يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنها هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقيز، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء، ولا تنقل حيث يشاء، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق

³⁵⁰ الأفق الناحية.و- خط دائري يرى فيه المشاهد السماء كأنها ملتقية بالأرض، ويبدو متعرجاً على اليابس، ومكوناً دائرةً كاملة على الماء.و- مدى الاطلاع، يقال في المعرفة والرأي: فلان واسع الأفق أو ضيق. الجمع آفاق.
³⁵¹ الميل: مسافة من الأرض متراخية.و- مقياس للطول قدر قديماً بأربعة آلاف ذراع، وهو الميل الهاشمي. وهو بري وبحري.

نطاق، ومن الأرصاد أغلال وأطواق، ولا يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرآة يؤلف فيها حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً، ثم يطيل التفكير: هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً؟ حتى إذا استوثق لنفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها، ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهدة الكون وآياته، مخافة أن يغفل عن إشارات السلام، ومظاهر الإكرام.

فإذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلي، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حق ربي تمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلى دياج³⁵² وحرير أو مهد وثير. فهل أستطيع أن أعد نفسي شقياً وأنا أروح الناس بالاً، وإن كنت أقلهم مالاً؟ لا فرق بيني وبين الغني، إلا أن الناس لا ينهضون إجلالاً لي إذا رأوني ولا يمدّون أعناقهم نحوي إذا مررت بهم، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي، ولا أثر له في نفسي، وما يعنيني من أمرهم أن قاموا أو قعدوا، أو طاروا في الهواء، أو غاصوا في أعماق الماء، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم، وما

³⁵² الديياج: ضربٌ من الثياب سداه ولحمته جريز (فارسي معرب).

ددمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الإنسان الى الصور المتحركة.

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا تلك العلاقة بيني وبين ربي، فأنا أعبدُه حق عبادته وأخلص في توحيده، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه، ولا أكتُمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لأحد من الناس، ولقد أخذ هذا اليقين³⁵³ مكانه من قلبي، حتى لو طلع على الملك المتوج في مواكبه وكواكبه، وراياته وأعلامه، مما خفق قلبي خفقة الرهبة³⁵⁴ والخشية، ولا شغل من نفسي مكاناً أكثر مما يشغله ملك التمثيل.

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي، وراحة نفسي من الهموم والأحزان، فما نزلت بي ضائقة ولا هبت عليّ عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعتني من بين مخالبيها وهونها عليّ، حتى لا أكاد اشعر بوقعها، وكيف أتألم لمصاب أنا أعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه، وأنني مأجور عليه على قدر احتمالي إياه، وسكوني إليه؟ آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه، فصغرت الدنيا في عينيّ، وصغر شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها، ولا أحزن

³⁵³ اليقين: العلم الذي لا شكّ معه.و- في الفلسفة: اطمئنان النفس إلى حكمٍ مع الاعتقاد بصحته.و- ربما عبروا بالظن عن اليقين، وباليقين عن الظن.
³⁵⁴ رهبة- رهباً: خافه.

لشرها، ولا أعول على شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها، واقسم ما خرجت مرة إلى
ضفة النهر حاملاً شبكتي فوق عاتقي إلا وقع الشك في نفسي: هل أعود إلى منزلي حاملاً
أو محمولاً؟

ما العالم إلا بحر زاهر، وما الناس إلا أسماك المائجة فيه. وما ريب المنون إلا صياد يحمل
شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك. وما ينجو من
شبكته اليوم لا ينجو منها غداً، فكيف اغتبط بما لا أملك، أو اعتمد على غير معتمد، إذن
أنا أضل الناس عقلاً وأضعفهم إيماناً! قال المحدث: فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار،
وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعاته واقتناعه بسعادة نفسه.

وقلت له: يا شيخ إن الناس جميعاً يكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها.
فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها فكيف تعد العالم سعيداً
وما هو إلا شقاء؟ قال: لا يا سيدي، إن الإنسان سعيد بفطرته، وإنما هو الذي يجلب بنفسه
الشقاء إلى نفسه، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطعمه، فيطول بكاؤه، ويعتقد أن
بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه، فإذا أخطأ سهمه و التوى عليه غرضه، إن شكا
شكاة المظلوم من الظالم، ويبالغ في حسن ظنه بالأيام، فإذا غدرت به في محبوب لديه من
مال أو من ولد، فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدّر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم

يكن ليناله لو خبر الدهر، وقتل الأيام علماً وتجربه وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ووديعة موقوتة، وإن هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها، إن أكثر ما يصيب الناس من شقوة إنما يأتي من طريق الأخلاق الباطنة، لا من طريق الوقائع الظاهرة، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود، والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه، والطماع يتألم كلما ناجته بالإثم سريره، والظالم يتألم كلما سمع ابتهاج المظلوم بالدعاء عليه، أو حاقت به عاقبة ظلمه، وكذلك شأن الكاذب والنمام³⁵⁵ والمغتتاب³⁵⁶، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل. ومن أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلا فهو أشقى العالمين، وإن أحرز ذخائر الأرض وخزائن السماء.

قال الصديق: فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال: استودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك، وهي أن يجعلك الله سعيداً في نفسك، كما جعلك سعيداً في مالك.

والسلام عليك ورحمة الله .

³⁵⁵ النميم: الصوت الخفي من حركة شيء أو وطء قدم.و- الوشاية. الجمع نمام.

³⁵⁶ الغيبة: أن تذكر أخاك من ورائه بما فيه من عيوب يسترها ويسوؤه ذكرها.

الكذب

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : في (الكذب والنفاق): " شر الأخلاق الكذب والنفاق".

كذب اللسان عن فضول كذب القلب، فلا تأمن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد، واهرب من وجهه الهرب كله، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك: الرجل الكاذب. عرّف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع، ولعلمهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال وكذب الأفعال.

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه، ولا فرق بين أن يكذب الرجل فيقول: إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فأقرضني مالاً أردّه إليك، ثم لا يؤديه بعد ذلك، وبين أن يأتيك بسبحة³⁵⁷ يهيمهم بها فتنتطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينه كاذبة من جميع حركاته وسكناته.

³⁵⁷ السُّبْحَة: خرزات منظومة للتسبيح. و- الدعاء. و- صلاة التطوع.

ليس الكذب شيئاً يستهان به، فهو أشر الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة.

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه، والمتكبر كاذب لأنه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته، والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنه، فيتحرى الصدق في مميته والمتملق كاذب لأن ظاهره ينفعل، وباطنه يلذعك.

ولقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتحدث بخوارق العادات.

فويل للصادق من حياة نكده لا يجد فيها حقيقة مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الود، ومستشار غير أمين، وجاهل يفشي السر، وعالم يحرف الكلام عن مواضعه، وشيخ يدعي الولاية كذباً، وتاجر يغش في سلعته، ويحنث³⁵⁸ إيمانه، وصحفي يتجر بعقول الأحرار، كما يتجر النخاس³⁵⁹ بالعبيد والإماء، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء.

³⁵⁸ حنثٌ في يمينه - حنثاً: لم ير فيها وأثم. فهو حانثٌ. و- مالٌ من إلى باطلٍ.

³⁵⁹ النخاس: بائع الدواب والرقيق.

غرفة الأحزان

قال الأحنف بن قيس في (الزمان): "مَنْ أَمِنَ الزَّمانَ خانَه، وَمَن تَعَظَّمَ عَلَيه أَهانَه".
كان لي صديق أُحِبُه لِفَضلِه وأَدبِه، أَكْثَرُ مِمَّا أُحِبُه لِصِلاحِه وَدِينِه، فَكان يَروِقُنِي مَنظرُه
ويؤنسنِي مَحضرُه، ولا أَبالي بَعْدَ ذلِكَ بِشيءٍ مِّن نَّسكِه³⁶⁰ وعبادَتِه، أو فسقِه واستهتارِ،
لأنني ما فَكرتُ قَطَّ أن أَتَلقَى عَنه عِلومَ الشَّريعَةِ أو دَروسَ الأخلاقِ.
قضيت في صَحبَتِه عَهداً طَويلاً ما أنكَرَ مِن أَمْرِه ولا يَنكَرَ مِن أَمْرِي شيئاً حَتى سافَرتُ مِن
القاهِرَةِ سَفرًا طَويلاً فَتراسَلنا حِيناً، ثَمَّ انقَطَعت عَني كَتابَهِ فَرابِنِي أَمْرُه ما رابَنِي، ثَمَّ
رَجَعت فَجَعَلت أَكْبَرَ هَمي أن أَراهُ فَطَلَبْتِه في جَميعِ المَواظِنِ الَّتِي كُنت أَلقاهُ فيها فلم
أَجِدْه، فَذهَبْتُ إلى مَنزلِه، فَحدَّثَنِي جِيرانُه أن هَجَرَه مِن عَهدِ بَعيد، وأنهم لا يَعرِفون أين
مَصرِهُ، فوَقَفْتُ بَين اليأسِ والرَّجاءِ بُرْهَةً³⁶¹ مِّن الزَّمانِ، يَغالبُ أولَهما ثانيَهما حَتى غلبَه،
فأَيقَنتُ أَني قد فَقدتُ الرَّجُلَ، وَأَني لَن أَجدُ بَعْدَ اليَومِ إِلَيهِ سَبيلاً.

³⁶⁰ النَّاسُكُ: المَتَعَبِدُ المَتَزَهِّدُ. و- النَّسَكُ: كُلُّ حَقٍّ لَهِ اللهُ تَعَالَى.

³⁶¹ البُرْهَةُ: المَدَّةُ مِنَ الزَّمانِ.

هنالك ذرفت من الوجد³⁶² دموعاً لا يذرفها إلا من قلّ نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربعه

من الأوفياء، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام، لا تخطئه سهاماً ولا تغبه آلامها³⁶³.

بيناً أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السرار³⁶⁴ إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا

الظلام المد لهم إلى زقاق موحش مهجور يخيّل للنظر إليه في مثل تلك الساعة التي

مررت فيها أنه مسكن الجان أو مأوى الغيلان³⁶⁵، فشعرت كأني أخوض بحراً أسود، يزخر

بين جبلين شامخين، كأما تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض، فما توسطت لجته³⁶⁶ حتى

سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنه تتردد في جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم

أخواتها، فأثر في نفسي مسمعها تأثيراً شديداً وقلت: يا للعجب! كم يكتّم هذا الليل في

صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم

ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت، أو الباكي إن عجزت،

³⁶² وجد فلان- يجد وجد : حزن.

³⁶³ أغبة الأم: جاءه حيناً بعد حين.

³⁶⁴ ليالي السرار: الليالي الأخيرة من الشهر.

³⁶⁵ الغول: كل ما أخذ الإنسان من حيث لا يدري فأهلكه. الجمع أغوال، وغيلان.و- مفرد الغيلان، تزعم العرب أنه نوع من الشياطين تظهر للناس في الفلاة فتتلون لهم في صور شتى وتغولهم، أي تضللهم وتهلكهم.و- المنية.و- الداهية.

³⁶⁶ اللجّة: اختلاط الأصوات. ويقال: سمعت لجة الناس: أصواتهم وصخبهم. و- الجلبة.

فتلمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته، فطرقت الباب طرْقاً خفيفاً فلم يفتح، فطرقتهُ أخرى طرْقاً شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها، فتأملتُها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها، فإذا هي في ثيابها الممزقة، كالبدْر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط³⁶⁷ قلبها، وقالت: أدرك أبي أيُّها الرجل فهو يعالج سكرات الموت، ثم مشت أمامي فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، قد خلتها، فخيّل إليّ أني قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي، فوضعت يديّ على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي، ثم فتح شفتيه قليلاً قليلاً، وقال بصوت خافت: ((أحمد الله فقد وجدت صديقي)) فشعرت كأن قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً، وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدُها، وكنت أتمنى ألا أعرّ بها، وهي في طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً³⁶⁸، وبين أضلاعي دفيناً، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التي صار إليها؟ وكأن أنسه بي أمد مصباح حياته

³⁶⁷ النيط: الموت. ويقال: رماه الله بالنيط. -و- الأجل. ويقال: أناه نيطه.

³⁶⁸ كمن في المكان - كموناً: توارى. -و- له: استخفى في مكنٍ لا يُفطن له.

الضئيل بقليل من النور، فأشار إليّ أنه يحب النهوض، فمددت يدي إليه، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص عليّ القصة الآتية: منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنتها على مثلها حسناً وبهاء، ورونقاً وجمالاً، فألم بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً، فما زلت بها أعالجها فتمتنع. و استنزلها فتعذر، وأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه.

حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فأنحدرت منه إليها، فسكن جماعها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضرب في أحشائها³⁶⁹، فأسقط في يدي، وطفث أرتئي بين أن أفي لها بوعدها أو أقطع حبل ودّها³⁷⁰، فأثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً.

³⁶⁹ الحشا: ما دون الحجاب مما يلي البطن كلّ من الكبد والطحال والكرش وما تبع ذلك. الجمع أحشاء.

³⁷⁰ الودّ: المحبّ. و- الكثير الحبّ. الجمع أوّد.

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب،

ومد يده تحت وسادته³⁷¹ وأخرج كتاباً بالياً مصفراً، فقرأت فيه ما يأتي:

((لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهداً دارساً³⁷²، أو ودأً قديماً، ما كتبت سطرًا، ولا

خطت حرفاً، لأني أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر، وودأً مثل ودك الكاذب، يستحق

أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتني أن بين جنبي ناراً تضطرم³⁷³، وجنيماً يضطرب،

تلك للأسف على الماضي، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تبال بذلك وفررت

مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف

يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل استطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل

شريف؟ لا، بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان، لأنك ما تركت خلة من الخلال

المتفرقة في نفوس العجماء³⁷⁴ وأوابد الوحش إلا جمعتها في نفسك، وكل ما

³⁷¹ الوساد: المخدة.و- كل ما يوضع تحت الرأس، وإن كان من ترابٍ أو حجارة.

³⁷² دَرَس- دَرَساً، ودروساً: عفا وذُهِب أثره. و- تقادم عهده.و- الثوب ونحوه: أَخْلَقَ وبلى.و- الشيء دَرَساً: غَيَّرَهُ أو محاً أثره.

³⁷³ اضطربت النَّارُ: ضرمت.ويقال: اضطرم الشر والحرب بينهم: هاج واشتد. واضطرم الشيب في الرأس: انتشر.

³⁷⁴ العَجَمَاء: البهيمة.

في الأمر إنك أريتني السبيل إلى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لي باباً، ولا رأيت لي وجهاً.

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهاباً بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة، فقد رافقتك جهدي حتى عييت بأمرك، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير بين يدي الجبار الكبير.

سرت عفتي³⁷⁵، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، استغل الحياة واستبطن الأجل، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أمّاً لولد، بل لا تستطيع أن تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة رأسها، مَسْبلة³⁷⁶ جفنها، واضعة خدها على كفها، ترتعد أوصالها³⁷⁷، وتذوب أحشاءها، خوفاً من عبث العابثين وتهكم³⁷⁸ المتهكمين.

³⁷⁵ العَفَّة: ترك الشهوات من كل شيء، وغلب في حفظ الفرج مما لا يحل. و- العفيفة: المتصفة بالعفة. و- السيدة الخيرة.

³⁷⁶ أسبلت الطريق: كثرت سابلتها. والزرع: خرج سبله. و- والسماء: أمطرت. و- والعين: سال دمعها.

³⁷⁷ الوصل: المفصل أو مجتمع العظام وكل عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره، الجمع أوصال.

³⁷⁸ تهكم فلان: تغنى وترنم. ويقال تهكم فلان: ترنم.

سلبتني راحتي لأنني أصبحت مضطربة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغيد³⁷⁹.

إلى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من أيام حياتي.

قتلت أُمي وأبي فقد علمت أنهما ماتا، وما أحسب موتهما إلا حزناً لفقدي ويأساً من لقائي .

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك والهم الطويل الذي عاجته بسببك. قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي، فأصبحت في فراش الموت كالذبابة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس، وأحسب أن الله قد صنع لي، واستجاب دعائي، وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء إلى دار الحياة والهناء.

فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك.

وحدث نفسه.و- وتكبر.و- وعلى غيره: اشتد غضبه وحمقه . ووقع فيه.و- تبخر بطراً على ما فرط منه: تندّم وبه: استهزأ به واستخفّ.

³⁷⁹ الرغدُ من العيش: الكثير الواسع الذي لا يتعب فيه، ويقال هو في رغد من العيش: رزق واسع، وعيشة رغدة واسعة طيبة.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً. أو أخطب إليك وداً، فأنت أهون عليّ من ذلك، إنني قد أصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيراً وشرها، سعادتها وشقائها، فلا أمل لي في ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقي لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها.

فما أهتمت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدّر على خديّ فسألته: وماذا تم بعد ذلك ؟ قال: إنني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع أعضائي، وخيل إليّ أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فرأيتها في الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاءً مرّاً، فصعقت لهول ما رأيت وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية، وأساور ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذلك يحدد أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها ((غرفة الأحزان)) حتى أعيش فيها وأموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء وكابدت من الشقاء.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى انعقد لسانه واكفهر³⁸⁰ وجه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتي يا صديقي، فلبث بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته، وما رأي مثل يومه يوم كان أكثر باكية وباكياً.

ولما حثونا التراب فوق ضريحه³⁸¹ جزعنا ولكن أي ساعة مجزع ليعلم الله أني أكتب قصته ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج³⁸² ولا أنسى ما حييت نداءه لي وهو يودع نسמת الحياة، وقوله: ((ابنتي يا صديقي)) فيا أقوياء القلوب من الرجال، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء.

إنكم لا تعلمون حتى تخذعونهن عن شرفهن، وعفتنهن، أي قلب تفجعون، وأي دم تسفكون !!

- قارن، قال أحمد بن مهدي: جاءتني امرأة ببغداد، ليلة من الليالي، فذكرت أنها من بنات الناس وأنها امتحنت محنة وقالت: أسألك بالله أن تسترني.

³⁸⁰ أكفهر الرجل: عبس -و- والليل: اشتد ظلامه-و- والنجم أظهر ضوءه في شدة الظلمة.

³⁸¹ الضريح: القبر.-و- والشق في وسط القبر.

³⁸² النشيج: الصوت المتردد في الصدر. الجمع نشيج . ويقال: عبرة نشيج: لها صوت.

فقلت: وما محتتك ؟ قالت: أكرهت على نفسي وأنا حبل، ذكرت للناس أنك زوجي، وأن

ما بي من الحبل منك فلا تفضحني استرني سترك الله عز وجل.

فسكت عنها ومضت فلم أشعر حتى وضعت. وجاء إمام المحلة في جماعة من الجيران

يهنئوني بالولد، فأظهرت لهم التهلل، ووزنت في اليوم دينارين ودفعتهما إلى الإمام.

فقلت: ادفع هذا إلى تلك المرأة لتنفقه على المولود، فإنه سبق ما فرق بيني وبينها.

وكنت أدفع في كل شهرين إليها دينارين على يد الإمام وأقول: هذه نفقة المولود. إلى أن

أتى على ذلك سنتان ثم توفي المولود فجاءني الناس يعزوني فكنت أظهر لهم التسليم

والرضا.

فجاءتني المرأة ليلة من الليالي بعد شهر ومعها تلك الدنانير التي كنت أبعث لها بيد

الإمام فردتها، وقالت: سترك الله عز وجل كما سترتني.

فقلت: هذه الدنانير كانت صلة لك من المولود هي لك فاعلمي فيها ما تريدين.

الشرف

قال أبو نصر الفارابي في (النفس) : " من رفع نفسه فوق قدرها، صارت نفسه محجوبة عن نيل كمالها".

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء، ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوره، يقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم، ولا يبالي أن يسميه القانون بعد ذلك مجرمًا، لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية، وهي في نظره أعدل من القانون حكمًا، وأصدق قولًا.

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفذ عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الإعفاء والمستقيمين، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يقدم عليه إلا كل حذق وبراعة، وشجاعة وإقدام.

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كل الشرف في إحراز المال وإن كان السبيل إليه دنيئاً وسافلاً، وأن للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه.

هكذا يتصور الأدياء أنهم شرفاء وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخطائهم وذوي جامعتهم، أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل

الدم بالدم فيعطونه، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهر فيطرونه ويجلون، ويكرمون صاحب الذهب، ولو أن كل دينار من دنانيره حجم الدم، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلاً، وطيب القلب مغفلاً، وطاهر السرير بليداً، والحليم عاجزاً.

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في أدمغتهم صوت الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها، وتترأى في لون غير لونها، فإن بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم وملتدح إفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة، حتى ليكاد يفخر بالأولى ويستحي من الأخرى.

لولا فساد التصوّر ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية أو الاجتماعية، ولولا فساد التصوّر ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة، ولولا فساد التصوّر ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي القضاء يفتل شاربته ويصعر³⁸³ خديه، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم الواقف بين يديه موقف

³⁸³ صعر- صعرأ: مال عنقه أو وجهه إلى أحد الجانبين. وقد يكون هذا مرضاً. - فلان: أعرض بوجهه كبراً.

الضراعة والذل، ولا ذنب له عنده إلا أنه جاع، وضافت به مذاهب العيش فسرق درهماً، وهو يسرق الدنانير في جميع إنائه وأوقاته، ولولاه لما توهّم اللص الكبير أنه أشرف من هذا اللص الصغير، ولو باتا عند قدريهما لوقفاً معاً في موقف واحد أمام قاضٍ عادلٍ يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشاً، وبراءة الثاني لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن³⁸⁴ الموت.

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس، ويقوّم معوجها، فليذهب بتصوراتهم، وليقوم إفهامهم يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم.

ليس الرأي من أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به أعماله أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره فلا عبرة بحكمة ولا ثقة بوزنه وتقديره.

ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك.

ألا تراهم يعدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب أو يحلي بها صدره، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها؟.

³⁸⁴ البرثن: مخلب السبع أو الطائر الجارح الجمع: براثن.

لا شرف إلا الشرف الحقيقي، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه أو خدمة نوع من أنواعه.

فالعالم شريف لأنه يجلو صداً العقل الإنساني ويصقل مرآته، والمجاهد في سبيل الذود عن وطنه شريف، لأنه يحمي مواطنيه غائلة الأعداء ويقيهم عادية الفناء، والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ويحيي أنفس البائسين، والحاكم العادل شريف، لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنحهم أن يبغى عليهم الظالمون، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق والآداب والصانع والزارع والتاجر أشرف متى كانوا أمناء مستقيمين لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري ويحتملون في سبيل ذلك ما يحتملون من المؤنة، والمشقة حذراً عليه من التهافت والسقوط.

فإن رأيت في نفسك أيُّها القارئ أنك واحد من هؤلاء، فاعلم أنك شريف وإلا فاسلك طريق جهدك، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبكِ على عقلك البواكي.

موعظة:

قيل كان لسليمان بن عبد الملك³⁸⁵ مؤذن يؤذن في قصره بأوقات الصلاة فجاءته جارية له مولدة فقالت: يا أمير المؤمنين: إن فلاناً المؤذن إذا مررت به لم يقلع ببصره وكان سليمان أشد الناس غيرةً، فهم أن يأمر المؤذن، ثم قال تزيني وتطيبي وامضي إليه فقولي له أنه لم يخف عني نظرك إليّ وبقلبي منك أكثر مما بقلبك مني، فإن تكن لك حاجة فقد أمكنك مني ما تريد، وهذا أمير المؤمنين غافل، فإن لم تبادر وإلا لم أرجع إليك أبداً.

فمضت إلى المؤذن وقالت له ما قال لها:

فرفع طرفه إلى السماء وقال: يا جليل أين سترك الجميل، ثم قال: اذهبي ولا ترجعي، فعسى أن يكون الملتقى بين يدي من لا يخيب الظن، فرجعت إلى سليمان وأخبرته الخبر فأرسل إليه. فلما دخل على سليمان قال له الحاجب: إن أمير المؤمنين، رأي أن يهب لك فلانة ويحمل إليك معها خمسين ألف درهم تنفقها عليها.

قال: هيهات³⁸⁶ يا أمير المؤمنين إني والله ذبحت طمعي منها من أول لحظة رأيتها، وجعلتها ذخيرة لي عند الله، وأنا أستحي أن أسترجع

³⁸⁵ سليمان بن عبد الملك: خليفة أموي.

³⁸⁶ هيهات: اسم فعل معناه البعد.

شيئاً ادخرته عنده. فجهد به سليمان أن يأخذ المال والجارية فلم يفعل. فكان يُعجب منه ولا زال يحدث أصحابه بحديثه.

قارن :

يُحكى أن المأمون أشرف يوماً من قصره فرأى، رجلاً وفي يده فحمة، وهو يكتب بها على حائط القصر.

فقال المأمون لأحد غلمانه : انزل إلى ذلك الرجل، فامسك بيده، واقرأ ما كتب، وأتني به. فنزل الغلام فأدركه، وقبض على يده، وقرأ ما كتب فإذا هو:

يا قصر³⁸⁷ جمع فيك الشؤم واللؤم

حتى يعيش في أرجائك اليوم³⁸⁸

يوم يعيش فيك اليوم من فرحي

أكون أول من ينعاك مرغوم

فقال له : أجب أمير المؤمنين.

قال : سألتك بالله، لا تذهب بي إليه.

³⁸⁷ القصر : بيت فخم واسع . الجمع قصور.

³⁸⁸ البومة : طائر يكثر ظهوره في الليل ويسكن الخراب ، ويضرب به المثل في الشؤم وقبح الصورة والصوت ، (يستوي فيه المذكر والمؤنث) . الجمع أبوام .

قال : إنه يراك. فلما مُثل بين يديه، قال الغلام : وجدته قد كتب كذا وكذا، وذكر البيتين.

فقال المأمون : ويلك ! ما حملك على هذا ؟.

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين، إنه لم يخف عنك ما حواه هذا القصر من خزائن الأموال، والحلى³⁸⁹، والحلل، والطعام، والشراب، والفرش، والجواري، والخدم. فمررت عليه وأنا في غاية من سوء الحال من الجوع والعطش، ولي يومان ما أستطعم فيهما بطعام ولا شراب، فوقفت ساعة وفكرت في نفسي وقلت : هذا القصر عامر، وأنا جائع، فلا فائدة له، فلو كان خراباً³⁹⁰ ومررت به على تلك الحالة لم أعدم رخامةً، أو خشبة، أو مسماراً أبيع به وأتقوت³⁹¹ بثمرته. أو ما علم أمير المؤمنين أنه قيل :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ

نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك عن بغض ولا كراهة

ولكن يرى نفعه في انتقالها

³⁸⁹ الحلى : ما يتزين به من مصوغ المعادن أو الحجارة . ومن السيف : زينته. الجمع حُلِيٌّ.

³⁹⁰ - خَرَبَ - خَرَباً ، وخراباً : تعطل عن أن يؤتي منفعته ، والمكان : خلا . وفي المثل : (إذا اصطاح الفأرة والسنور ، خرب دكان العطار) : يضرب في تظاهر الخائنين.

³⁹¹ - القوت : ما يتقوت به بدن الإنسان من الطعام . الجمع أقوات .

فقال المأمون : يا غلام، أعطه ألف دينار، وأطعمه، واسقه، وقال له: يا هذا، هي لك في كل سنة مادام قصرنا عامراً بنا³⁹².

الحب والزواج

قال عمر بن عبد العزيز في (الدنيا): "أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم". قرأتُ في بعض المجلات قصّة قصّها أحد الكتّاب موضوعها أن كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام، ثم عاد إليها بعد ذلك فزار صديقاً له من أثرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية، فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده، وأنها فرت منه إلى عشيق لها، رقيق الحال، وضيع النسب.

فاجتهد الكاتب أن يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها فلقبها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين، وقالت: أنها

³⁹²المقري ، شمس الدين محمد بن أحمد المقري، كتاب المختار من نوادر الأخبار ، تحقيق أنور أبو سويلم ، مركز سندباد للترجمة والنشر والتوزيع، عمان ، ط 1، 1996م.

جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وإن خالفت الشرائع الدينية، لأن الأولى عادلة والثانية ظالمة.

وقالت: أن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة والغش ولا الخداع إلا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها إلمام الأزواج بنسائهم ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية، وأنها ربما تعهد المرأة في بيت زوجها زانية، وفي بيت عشيقها طاهرة، وإذا كانت تكره الأول.

هذا ملخص القصة على طولها، وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب لأن الكاتب قد أعذر³⁹³ تلك الفتاة فيما فعلت. واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعدها على زوجها³⁹⁴ وقضى لها فيما كان بينهما.

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية فالحق أقول: إن الكاتب أخطأ في وضعها، وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية³⁹⁵ قد قضى

³⁹³ أعذرها: قبل عذرها.

³⁹⁴ أعدها عليه: أنصف لها منه.

³⁹⁵ مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رؤياً واعتقاداً.

وانقضى بانقضاء العصور المظلمة، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الأمة العربية، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به.

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سائق حاجة ثم تاب إليها رشدها وهداها، فقلنا: لا بأس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة، وألبسته ثوباً أوسع من ثوبه، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبه تحاول الرجوع إلى ربها والتوبة من ذنبها، ويأبى المجتمع البشري إلا أن يسد عليها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين.

أما وقد وصل الحد إلى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمها عليها وأغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها إلى ذلك داع من الهوى، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله.

إن فتاة الرواية لم تهتف في جرميتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت، لأنها فرت من فراش زوجها، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع، لأنها كانت أهناً عيشاً، وأروحهن بالاً، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في أعطاف العيش

البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة.

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد³⁹⁶ في معاجمهم لأنها لا مسمى لها في هذا العالم، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة المواقير لأنها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً، ولم ترص عن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة.

كل الأزواج ذلك الزوج إلا قليلاً فإذا جاز لكل زوجة أن تفر من زوجها إلى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الأول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني، فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام.

أيها الكاتب ! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصد كسر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الأربعين من عمره مخافة أن تراه زوجته غير أهل لعشرتها إذا علمت أن في الناس من هو أصغر منه سنّاً وأكثر منه رونقاً وأنضر شباباً.

³⁹⁶ الفساد: التلف والعطب، والاضطراب والخلل و- الجذب والقشط. وإلحاق الضرر.

إن الضجر والسامة³⁹⁷ من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشيّر واحد، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، وعلم أن نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشريتهما³⁹⁸، ويطول اثنتاهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما وذهابهما في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب من حيث الميل لكل جديد والشغف³⁹⁹ بكل غريب.

هذا هو سر الزواج، وهذه حكمته فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلاً من الزواج فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيئية. أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل منه ؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون في منزله أجمل منها، لولا هذا الرباط المقدس رباط الزوجية فهو الذي يعالج

³⁹⁷ سئم الشيء ومنه - سأمًا، وسامة: ملّ.

³⁹⁸ العشرة: المخالطة والمصاحبة.

³⁹⁹ شَغَفَ به، وبجبه - شَغَفًا: أحبه وأولع به، فهو شَغُفٌ، وهي شَغْفَةٌ.

أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس وهو الذي يعيد إلى النفوس الثائرة سكونها وقرارها.
لا بأس أن يثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج، يحيا بحياته ويموت بموته. فالقلوب متقلبة والأهواء نزاعة، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقاً أكثر منه عشيقاً فالصداقة تنمو بالمودعة غرسها، ويمتد ظلها، أما الحب فضل ينتقل وحال تتحول.

قصة :

حدث رجل من تغلب قال:

كان فينا رجل له ابنة شابة وكان له ابن أخ يهواها وتهواه، فمكثنا كذلك دهرًا، ثم إن الجارية خطبها بعض الأشراف فأرغب في المهر، فأنعم أبو الجارية، واجتمع القوم للخطبة، فقالت الجارية لأُمها: يا أماه، ما يمنع أن يزوجني من ابن عمي؟
قالت: أمراً كان مقضياً، وقالت: والله ما أحسن. رباه صغيراً، ثم تدعوه كبيراً؟
ثم قالت لها: يا أماه. إني والله حامل، فاكتمي إن شئت أو نوحى.
فأرسلت الأم إلى الأب فأخبرته الخبر، فقال: اكتمي هذا الأمر.

ثم خرج على القوم، فقال: يا هؤلاء إني كنت أحببتكم وأنه قد حدث أمر رجوت أن يكون

فيه الأجر وأنا أشهدكم أنني قد زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان.

فلما انقضى ذلك قال الشيخ: ادخلوها عليه.

فقالت أم الجارية: إنها بالرحمن كافرة إن دخل عليها من سنة أو تبين حملها. قال: فما

دخل عليها إلا بعد حول، فعلم أبوها أنها احتالت عليه.

الزوجتان

قال الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه- للأشعث بن قيس في (القدر): " إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور".
حدثني أحد الأصدقاء قال: سأقُصُّ عليك قصّةً ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين.

أويْتُ إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية⁴⁰⁰ الإهاب فما استقبلت أول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب عُرفتي فتسمعتُ فإذا الخادمة تقول: إن امرأة سيئة الحال رثّة⁴⁰¹ الثياب في زي المتسولات تلح في طلب الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت، قلت: عهدي بسيدتي رخيّة البال ناعمة العيش سعيدة الحظ. بزوج عذب الأخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هوائك، ولا يعدل بكِ أحداً.

قالت: إنك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر والكوكب السيّار فاستمع مني حديث اليوم.

⁴⁰⁰ الغدافي: ما كان لونه أسود والمنسوب إلى الغداف. ويقال: ليلة غدافية الإهاب مظلمة.

⁴⁰¹ الرث: رديء المتاع.

أظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة أعوام، وأن أبي قد أثره وفضله على جميع الخاطبين إليه من علية القوم وجلتهم، وأنا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد أن يسيء الاختيار لي، ولكنه كان رجلاً طيب السيرة طاهر القلب، فخدعه الخادعون عني ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتبطت به واغتبط بي برهة من الزمان. أنا فلانة زوج فلان، فدهشت وغصصت برريقي حتى ما أجد بلة أحرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت.

قلت: يا للعجب ! زوج فلان على عظمه وعظمها، وجلاله وجلالها، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البرهة⁴⁰² ! وسألتها: ما شأنك يا سيدتي ومِمَ تبكين ؟

قالت: لا تحدث نفسك بريية⁴⁰³ ولا تذهب بك الظنون مذاهبها، فو الله ما جئت إليك تحت ستر الليل إلا وأنت أوثق الناس عندي، وأرفعهم في عيني، ولولا شدة أقلققت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى⁴⁰⁴ ما خضت إليك سواد مقابلتك وتقول: إن لها عندك شأنًا

⁴⁰² البرهة: الهيئة والشارة.

⁴⁰³ الريية: الظن والشك والتهمة الجمع ريبٌ وقد تقدم بيان المعنى سابقاً.

⁴⁰⁴ الكرى: النعاس. والنوم، الجمع أكرأ.

فقلت في نفسي: لا شأن لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها إليّ أكثر من حاجتي إلى النوم، على أن النوم لا يفوتني قليل الشتاء طويل من يوم القضاء، فارتديت ردائي ونزلت فإذا فتاة في ملءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس، وإذ هي ترتعد وتضطرب وتقول بصوت شجيّ⁴⁰⁵: أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفئ هذه الجذوة⁴⁰⁶ التي تتأجج بين أضلعي بقطرة واحدة من الرحمة؟ فقلت: من أنتِ يرحمك الله؟ قالت: حسبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمت⁴⁰⁷ به النساء إلى الرجال، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به، ولا قطبت في وجهه مرة ولا أتلفت له مالاً، ولا نقضت له عهداً، فجازاني بالإحسان سوءاً وكفر بنعمة الله بعد الإيمان، وخان ودي ونقض عهدي لا لذنوب جنيته أو وصمة⁴⁰⁸ يصمني بها، ولكنه رجل ملول متبرم، ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك: إن قلب الرجل متقلب متلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب وإن هذه المرأة التي تحتقرونها

⁴⁰⁵ الشجن: الهم والحزن، والحاجة الشاغلة، الجمع أشجانٌ وشجونٌ.

⁴⁰⁶ الجذوة: الجمرة الملتهبة، والجمع جذأً، وجذأً ويقال: فلان جذوةٌ شرٌ.

⁴⁰⁷ ممتٌ إليه بقرابة ونحوها - متاً: توسل فهو مات و- الحبل: نزع من البئر على غير بكرة.

⁴⁰⁸ تقدم بيان المعنى.

وتزدرونها وتضربون الأمثال⁴⁰⁹ بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقداً⁴¹⁰ وأمتن ودّاً،

وأوفى عهداً، ولو وفي الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ريب

المنون⁴¹¹ .

قلتُ: أنا لا أغضبُ لشيء إلا للإنسانية أن يخفر ذمامها وينقضي عهدها، ثم ماذا

تم بعد ذلك؟ قالت: مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً أمكنت منه زوجي فأتلفه

بين الخمر والقمر فكنت أغضى على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده، حتى

إذا صفرت يدي وأقفر ريعي أحسست منه مللاً كان يدعوهُ إلى سوء عشيرتي

وتعذيب جسمي ونفسي، وكان كثيراً ما يتهكم بي ويقول: إنني لا أحب المرأة

⁴⁰⁹ ومن هذه الأمثال والحكم:

يقول سقراط: "من أراد النجاة من مكائد الشيطان فلا يطيعن امرأة، فإن النساء سلم منصوب ليس للشيطان حيلة إلا بالعود عليه".

ويقول طاغور: "النساء يشبهن الأنهار فهي قوة مفيدة حين تجري ساكنة هادئة، وهي قوة مخربة حين تثور وتطغى".

ويقول برنارد شو: "بعض النساء يفقدن القدرة على فن المحادثة، ولكنهن للأسف لا يفقدن القدرة على الكلام، النساء جميعاً سواء، فهن يعتقدن أن مجموع (2) و (2) سيكون (5) لا يفقدن القدرة على الكلام".

إلا أن للمرأة أمثال كثيرة تنصفها.

⁴¹⁰ العَدَد: العهد.

⁴¹¹ المنون: الكثير المن، والتي تزوجت لمالها فهي تمُنُّ على زوجها والدهرو- والموت (مؤنث وقد تذكر).

الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها، وآونة كان يعرض بي قائلاً: إن الرجل هو الذي يرزق زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية، بل يتجاوز التعريض أحياناً إلى التصريح، فيقول كلما دخل عليّ متأففاً متذمراً: ليت لي زوجة كفالانة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقيع على الآلات الموسيقية فكنت أشك في سلامة عقله. وأقول في نفسي: كيف يفضل الزوجة المبتذلة المستهترة على الحية المحتشمة ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنتُ أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس. وبعد، فما زال الملل يدب في نفسه ذبيب⁴¹² الصهباء⁴¹³ في الأعضاء حتى تحوّل إلى بغضاء شديدة، فما كان يلحظني إلا شزراً⁴¹⁴ ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة، ثم يخرج لشأنه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور وجنان وقور، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الأقاليم، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلي، فلبثت أترقب كتاباً منه يدعوني فيه إلى اللحاق

⁴¹² تقدم بيان المعنى.

⁴¹³ الصهباء: الخمر.

⁴¹⁴ شزر الحبل شزراً: فتلّه - فلاناً وإليه: نظر إليه بمؤخرة عينه وأكثر ما يكون في حال الإعراض أو الغضب، وبالسنان: طعنه عن يمين وشمال.

به، فما أرسل كتاباً ولا رسولاً ولا نفقة، فاستكتبت إليه الكتاب فما أسلس قياده، ولا طلوع عناده، فسافرت إليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لا أعلم غاية شأنه معي، فما نزلت من القطار حتى فيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية، فداخلني من الهم والله به عليم، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع، ولا أظن إلا أن العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير.

وكانه شعر بمكاني، فجاء إليّ يتهددني ويتوعدي فتوسلت إليه ببكاء طفله التي كنت أحملها على يدي، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدا عليها، وذمبت في استعطافه واستدناؤه كل مذهب، فكنت كأني أخطب ركوداً⁴¹⁵ صماء⁴¹⁶ أو استنزل أبوداً⁴¹⁷ عصماء⁴¹⁸ ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة، فعدت من حيث أتيت.

⁴¹⁵ الركود: الثبات والسكون.

⁴¹⁶ الأصم: ذو الصم والذي لا يطمع فيه ولا يرد عن هواه. والصلب المصمت. ويقال: جِلْمُ أَصْمٍ: واسع لا يتزعزع وخطبُ أَصْمٍ: شديد .

⁴¹⁷ أبدت البهيمه: توحشت.

⁴¹⁸ العصماء من الظباء التي في ذراعيها بياض وسائرهما أسود.

فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسِي ولبست هذه الثياب وجئتكَ في زمام الليل
لأنني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم⁴¹⁹، ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك
وبين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى⁴²⁰ أن ترى لي رأياً في التفريق بيني وبينه، علني
أجد في فضاء الحرِّيّة منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلّغ به أنا وطفلي حتى يبلغ
الكتاب أجله.

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني ووعدتها بالنظر في أمرها بعد أن هونت
عليها بعض أحزانها ولواعجها فعادت إلى منزلها وعدت إلى مضجعي أفكر في هذه
الحادثة الغريبة وقد اكتنفتني هما: هم تلك البائسة التي لم أرَ في تاريخ شقاء النساء قلباً
أشقى من قلبها ولا نجماً أنحس من نجمها، وهم ذلك الصديق الذي ربحتهُ سنين عدة
وخسرتهُ في ساعة واحدة، فقد كنت أغبط نفسي⁴²¹ عليها فأصبحت أعزبها عنه، وكنتُ
أحسبه إنساناً فإذا هو ذئب عملس⁴²² تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة
والابتسامة.

⁴¹⁹ الحميم: القريب الذي تودّه ويودُّك . و- والحميم بالحاجة : الكلف بها.

⁴²⁰ عَسَى: فعل يفيد الرجاء.

⁴²¹ اغتبط: فرح بالنعمة.

⁴²² العملس: السريع.

هذا ما قصه عليّ ذلك الصديق الكريم، ثم لم اعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة وهذا نصه:

سيدي: يهمني كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليّ كتاباً منك لأسر عبثاً بمشاركتك إياي في سروري وهنائي.

إنك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها (فلان) وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليّ.

وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فأعلم أنها دفعت زوجها على موقف القضاء فضاقت بأمرها ذرعاً فطلقها، وكنت أفكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوجة صالحة أجد السعادة في العيش بجانبها، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانية من شقوتها وبلاتها، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل انتقاماً شديداً.

فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر⁽⁴²³⁾،
والشقاء الأكبر، وأنها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذاً عظيماً فحولتها
إلى فتاة غريبة في جميع شؤونها وأطوارها. والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان،
أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه، فهو يقاسي من تلك
المرأة الخرقاء، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء والسلام.

⁴²³ لقد تقدم بيان المعنى.

البخيل

يقول المثل الأمريكي: "البخيل على استعداد دائم حتى لبيع حصته من الشمس".

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه ؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك: فأجبت بهذا الجواب:

البخل: إحدى الملكات النفسية والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار فكما لا يُسأل عن سبب إسرافه والغضب عن غايته من غضبه، والحاسد عن غرضه من حسده.

كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حيناً، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، لكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلة لا ترعجها الرغبات، ولا ترزعزعا الإيرادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه، أحسن كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده فتشجعت أعصابها وتصلبت أناملها وأعيت على الالتواء الإنشاء فأخرجها صفرًا كما أدخلها⁴²⁴.

⁴²⁴ لم تترك الأمثال والحكم البخيل من دون أن تعييه ومن هذه الحكم والأمثال:

وبوده أن لا يفعل لولا أن للغريزة قوة فوق قوة الإرادة، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتناقد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون ينتزعها فإنه يكسر شرتها أحياناً وإن لم ينتزعها انتزاعاً.

ويحكى أن شحيحاً⁴²⁵ تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فتأبّت عليه، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلتها⁴²⁶ من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه، علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: ما هي الأسباب التي غرست ملكة البُخل في نفس البخيل ؟

يقول سقراط: "من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل، ومن جاء على نفسه فذلك المرجو جوده".

ويقول جوفينال: "من الجنون أن يحيا الإنسان فقيراً ثم يموت غنياً".

ويقول مثل صيني: "البخيل لا يملك الذهب، ولكن الذهب يملك البخيل".

ويقول مثل روسي: غني بخيل أفقر من متسول.

ويقول فولتير: "البخلاء يشبهون مناجم الذهب لا تُعطي أزهاراً ولا أوراقاً".

⁴²⁵ الشحيح: البخيل.

⁴²⁶ تقدم بيان المعنى.

فيكون الجواب عن ذلك: إن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع.

الأول- الوراثة:

وهي وأن كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطهم، إلا أنها كثيراً ما تنمو وتنسجم إذا أغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نماءها.

الثاني: التربية:

إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه أخذ أخذهم في الحرص وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان⁴²⁷ أو

⁴²⁷ حكى بعضهم: كنت في سفر فضلت الطريق، فرأيت بيتاً في الفلاة فأتيته فإذا به أعرابية، فلما رأته قلت: من تكون ؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت. فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، مالنا وللضيف، فلما سمعتُ كلامه ركبْتُ من ساعتني وسرْتُ. فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأته قلت: من تكون ؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف ما لناو للضيف؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب الدار فلما رأي قال: من هذا؟ قالت: ضيف. قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مرَّ بي بالأمس فتبسمت: فقال: مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلمها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا

استهجان، كأنها هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بمرئيتها.

ويحكى أن رجلاً دخل منزلاً يعرف أهله بالشح والحرص، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل ((أن يدك لا تسعها)).

الثالث: سوء الظن بالله:

ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم⁴²⁸ ويكلهم إلى أنفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام، فلا يلج به الحرص على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والحدود، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه.

تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وبعليها أخو امرأتي هذه فغلب على طبع أهله.
⁴²⁸ قال بعضهم: رأيت أعرابية في طريق مكة، وسأل ولم يعط شيئاً، ومعه صبي صغير، فلما طال عليه الأمر قال: ما أراك إلا محروماً.
قال الصبي: يا أبت، المحروم من سألته فبخل ولم يعط.
فعجب الناس منه ووهب له شيء كثير.

الرابع: النكبات:

كثيراً ما تحل بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها، ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال، كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له، ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع، فإنه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة. ولا تضيع من ذاكرته آلامها، فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيّل إليه مالا يتخيل ويريه له مالا يرى كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة وأفظع شكل فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي الأمن والخوف والوحشة والأنس.

الخامس: اللؤم:

فإن النفس إذا خشيت طينتها ولؤم طبعها، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود أجمعه، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل.

السادس: سقوط الهمة:

إذا نشأ الإنسان عالي الهمة طموحاً إلى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل، سهل عليه أن يبذل في سبيل الله كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه، وحب المجد وأسأل الذهب من خزائن الأغنياء، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسماً بين شفرات السيوف، وأسنة الرماح، طلباً لسعادة الحياة بالذكر وسعادة الممات بالخلود.

فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه وامتزاج حبه بلحمه ودمه، أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته ؟ أو خوف المذمة، وهو لا يتألم منها، ولا يحس ممراتها ؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات ؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الخطيئة من المكارم بلقمة يمضغها وحلة يلبسها.

السابع: فساد المجتمع الإنساني:

ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، وخير يطمعون فيه، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإجلال والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين.

فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما في يده، وهو عمل يتكلفه ولا يعمل له، بل هو أشهى الأشياء إليه، وأكثرها ملائمة لفطرته، ليزداد شرفاً وعزاً، كلما ازداد ثراءً ووفراً.

ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بني لا يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهما من أن يقسمهما فيهم، وقال رجل لآخر: يا بخيل، فقال له: لا أحرمني الله بركة هذا الاسم، لأنني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء.

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل، فإن أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيد البخل من بخله، حتى على نفسه وفرضنا البخل مختاراً فيما يفعل غير ساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة كان منال النجم أقرب من تطبق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل، لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة. بعضها نفسي وبعضها جسدي فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة والجرعة والظلة، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز، لأنه قادر، ولا على الزهد، لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع، ولا على الخوف من الفقر، لأن عنده من المال ما

يغني الأعمار. فهيها أن يغنيه عمر واحد، ولا على رغبة في سعادة الذرية لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته، فيما أن يشقى في حياته ليسعد ولده بعد مماته.

فما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون حتى لا يكون مقصوداً على المعربين والهاذين، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإراداتهم وباختيارهم آلاماً نفسيةً هي أشد ما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان.

كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقتربين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

البائسات

قال الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في (الظلم) : " يوم المظلوم على الظالم، أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم".

زرتُ منذ أيام حاكم بلدة في منزله فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشر من عمرها بائسة علية، تشكو ألماً في عنقها، وجرحاً في ذراعها، وهماً في نفسها، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنها هي مركبة على زئبق⁴²⁹ رجراج⁴³⁰، فسألت: ما شأنها ؟ فعلمت أن أهلها زوجها وهي في هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق. ثم زفوها إليه فحاول أن يفتريها وهي على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجز، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم من سجنه إليه مرة أخرى.

وهناك عاد زوجها إلى عادته معها، فعادت هي إلى فرارها، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم. فلما أعيأها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً، حتى رفع

⁴²⁹ الزئبق: عنصر فلزيٌّ سائل في درجة الحرارة العادية.

⁴³⁰ الرجراج: المهتز المضطرب. يقال: بحر رجراجٌ وناس رجراجٌ: ضعفاء لا عقول لهم.

أمرها إلى ذلك الحاكم، فأمر باستدعائها وآواها في منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد.

وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجته عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل.

إن المرأة المصرية شقية بائسة، ولا سبب لشقاؤها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها. إنها لا تحسن عملاً ولا تعرف باب مرتزق ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها، وتقتات منها إلا قلب الرجل، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً، أو لا فلا مفر لها من الشقاء من المهد إلى اللحد.

ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام، وعقبات جسام، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيدٍ وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام.

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير أولئك الجاهلاء أولياء أمر تلك الفتاتين: استثقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة والقومة والقعدة، ورأوا أنها عالة عليهم، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً. وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب أي خاطب كان يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها.

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم وقلوبهم من القسوة، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاضوها في اختيار الزوج، أو يحسنوا الاختيار لها حين يختارون، فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأنًا من شؤون أهله دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل.

فإذا كانت ذات جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب والجمال المصنوع وآلاماً جثمانية تطفئ نور شبيبته وتذبل زهرة حياتها وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ما يجعل أخلاقها قضاء مملوءاً بالكذب والكيد، والخبث والرياء، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام.

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي، فما أنس لا أنس ليلة زرت فيها صديقاً لي فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية، وكأنما هي خلال رقة وذبولاً ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف رداثها، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رافة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها.

فسألتها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل ((والإدارة)) تماطل في إنفاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ومعالجة القوت ما أسأل شؤوننا وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدّعا.

فخففت أنا والصديق شيئاً من آلامها فانصرفت، وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس، وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة.

أيها الرجل: إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مدارك واستعداداً مثل استعدادك فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك.

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها وإن كنت أباً فهذه فلذة كبذك فلا تضق بها ذرعاً، ولا تلق بها في حُجر وحش ضارياً أكل لحمها ويمتص دمه، ثم يلقي إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون: والله لا أعرف لكم باباً في الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة وأدبوها ينشأ في حجرها
المستقبل العظيم. العظيم للوطن الكريم.

تعليق

هذا لا يعني أن المرأة دائماً مهضوماً حقها، وإنما قد يكون الرجل ضحية وفريسة من
المرأة.

قصة :

يذكر عن أبي جعفر المنصور⁴³¹ أنه جلس في إحدى قباب⁴³² مدينته، فرأى رجلاً ملهوفاً
مهموماً يجول في الطرقات. فأرسل من أتاها به، فسأله عن حاله، فأخبره الرجل أنه خرج
في تجارة فأفاد مالاً وأنه رجع بالمال إلى منزله فدفعه إلى أهله، فذكرت امرأته أن المال
سُرِق من بيتها ولم ترى نقباً ولا تسليقاً.

فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها ؟

قال: منذ سنة.

⁴³¹ أبو جعفر المنصور: خليفة عباسي ولد سنة 95 هـ بويح بالخلافة بعهد من أخيه وكان فحل بني العباس هيبه
وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً، جماعاً للمال، تاركاً اللهو واللعب، كامل العقل فقيه النفس، قيل قتل خلقاً كثيراً
حتى استقام ملكه والله أعلم على كل حال.

⁴³² القبة: بناءٌ مستدير مقوس مجوف يُعقد بالآجر ونحوه، وخيمة صغيرة أعلاها مستدير الجمع قباب.

قال: أفبكر⁴³³ هي تزوجتها ؟

قال: لا.

قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا.

قال: فشابة هي أم مسنة ؟ قال: بل حديثة.

فدعا له المنصور بقارورة⁴³⁴ طيب كان يتخذه له حاد الرائحة، غريب النوع، فدفعها إليه

وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همك. فلما خرج الرجل من عند المنصور

قال لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مرّ بكم

فشمتم منه رائحة هذا الطيب فليأتني به.

وخرج الرجل بالطيب، فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين: فلما شمته

بعثت إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيب من هذا

الطيب، فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي.

فتطيب منه الرجل ومرّ مجتازاً ببعض أبواب المدينة، فشمّ الموكل بالباب رائحة الطيب

منه، فأخذه فأتى به المنصور.

فقال له المنصور: من أين اشتريت هذا الطيب فإن رائحته غريبة معجبة ؟

⁴³³ البكر: العذراء.

⁴³⁴ القارورة: وعاء من الزجاج تحفظ فيه السوائل. وعاء الطيب.

قال: اشتريته. قال: أخبرنا ممن اشتريته ؟

فتلجلج⁴³⁵ الرجل وخلط كلامه.

فدعا المنصور صاحب شرطته، فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا كذا من

الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط⁴³⁶ من غير مؤامرة.

فلما خرج من عنده دعا صاحب شرطته فقال: هول عليه وجرده ولا تقدمن بضربه حتى

تؤامرنى.

فخرج صاحب شرطته فلما جرده⁴³⁷ وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها بهيئتها، فأعلم

المنصور بذلك، فدعا صاحب الدنانير فقال له: رأيتك إن رددت عليك الدنانير بهيئتها

أتحكمنى فى امرأتك ؟

قال: نعم، قال: فهذه دنانيرك، وقد طلقت المرأة عليك. وخبره خبرها.

⁴³⁵ اللجّة: اختلاط الأصوات، ويقال: سمعت لجة الناس: أصواتهم وصخبهم.

⁴³⁶ السوط: ما يضرب به من جلدٍ سواء أكان مضافاً أم لم يكن.

⁴³⁷ جرده - جرداً: قشره وأزال ما عليه. ويقال: جرده من ثوبه: عراه. وجرد الجلد: نزع عنه الشعر. وجرد الجراد الأرض: أكل ما عليها من النبات وأتى عليه فلم يبق منه شيئاً. وجرد القحط الأرض: أذهب نباتها.

الإغراق

قال شكسبير في (الاعتدال): "لا توقد الفرن كثيراً لعدوك، لئلا تحرق به نفسك".

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون. يسمع السامع أن زيداً ملك كريم، ثم يسمع أنه شيطان رجيم، فيخرج منه صفر اليدين لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين.

يقولون أن المشعوذون إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الأرض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين.

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المفرقين اضطراب الحديد في أيد المشعوذين.

الحقيقة بين الكاذب والكاذب كالجبل بين الجاذب والحاذب كلاهما ينتهي به الأمر إلى الانقطاع لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص.

أنه جالس على كرسي القضاء، وأن الناس سيسألونه مما قال. كما يسألون القاضي عما حكم، ما طاش سهمه في حكمه ولا ركب متن الغلو في تقديره.

كما أنه يجب على القاضي أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها، وأن لا يعلو به فوق قدره، ولا ينزل به دون منزلته.

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقضات الحكم على الأشخاص، وليس بينهم من لم يتمن أن يكون في موضع أولئك المؤرخين المتطرفين حتى لا يغلو غلوهم، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم.

أيُّها الكتابُ المحزنون: لا يحزنكم ما كان، ففضى ذلك الزمان بخيره وشره، ولا سبيل إلى رجوعه ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الماضي، فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الحاضر، وكما أن للماضي مستقبلاً وهو حاضركم هذا، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آتٍ يحاسبكم فيه رجاله على إغرافكم في أحكامكم، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم وتطرفهم في آرائهم.

إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء، وكل مؤلف أعلم العلماء، وكل خطيب رئيس الأمة، وكل فقيه إمام الدين، فأين المفاضل والمفضول ؟ وأين الرئيس والمرؤوس وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو، ويكون عمرو غداً أفضل منه، وإن

ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتمييزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم ؟
وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم أن الرجل الواحد في نظر بعضكم خير
الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس ؟!

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان، فتخيلت كأني رجل
من رجال العصور الآتية، وأني ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد
عظماء عصركم هذا، فقرأت ما كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم، فرأيت تارة عظيماً
وأخرى حقيراً، ومرة شريفاً، ومرة وضيعاً، ورأيت عالماً وجاهلاً وذكياً وغيباً وعاقلاً
وممرواً⁴³⁸ في آنٍ واحد فخرجت أضل مما دخلت، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من
أنه رجل، أي أنه ذكر بالغ من بني آدم!

أيها القوم: إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين في أحكامكم وآرائكم إلا إذا
أصلحتم نفوسكم أولاً، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا من أهوائكم وأغراضكم
قبل أن تتناولوا أقلامكم.

أيُّها القوم: إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين فكونوا راحمين فارحموا أنفسكم وأعفوها
من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات
وسئمت نفوسنا تلك المبالغات.

⁴³⁸ الممرور: المصاب بخبل في عقله.

اللقطة

قال الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في (الحق والباطل): " دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة ".

مر عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشتاء ضرير نجمها، حالك⁴³⁹ ظلامها، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة في الرابعة عشر من عمرها جالسة القرفصاء⁴⁴⁰ وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء⁴⁴¹ بالعود، وليس في يدها ما تتقيه به إلا أسمال⁴⁴² تتراءى مزقها في جسمها العاري كأنها آثار⁴⁴³ سياط المستبدين في أجسام المستعبدين.

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس وتزعج نفسه مواقف الشقاء ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح ((لا أعود.. لا أعود)) فلم يزل يمسحها ويروضها

⁴³⁹ هلك: هلكاً، وهلكة: اشتد سواده.

⁴⁴⁰ القرفصاء: أن يحتبي الرجل يديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس.

⁴⁴¹ النكباء: ريحٌ انحرقت ووقعت بين ريحين كالصبا والشمال.

⁴⁴² تقدم بيان المعنى.

⁴⁴³ السوط : ما يضرب به من جلدٍ، سواء أكان مضموراً أم لم يكن، والشدة، الجمع أسواط وسياط.

حتى هدأ روحها وعاد إليها رشدها⁴⁴⁴ وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه، فنظرت إليه نظرة لو بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواجع الأحران وكوامن الأشجان.

- ما اسمك أيتها الفتاة ؟

- لا أعلم يا سيدي ؟

- بماذا ينادونك ؟

- يدعونني اللقيطة⁴⁴⁵.

- وهل أنت لقيطة كما يقولون ؟

- نعم يا سيدي، لأنني لا أعرف لي أباً ولا أمّاً في الأحياء ولا في الأموات، سوى رجل يتولى شأني ويضممني إليه في منزله، وكنت أحسبه أبي فيمتلئ قلبي سروراً به، وعطفاً عليه، فلما رأيت أنه يعذبني عذاباً أليماً ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله الآباء أبناءهم علمت أنني وحيدة في هذا العالم، وفهمت معنى الكلمة التي يناديني بها، فألم بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به.

وكنت كلما مشيت في الطريق، ورأيت فتاة صغيرة سألتها ألك أم ؟ فتجيبني: نعم، ثم تقص عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها، وعطف أمها

⁴⁴⁴ الرُّشد (عند الفقهاء) أن يبلغ الصبي حد التكليف صالحاً في دينه مصلحاً لماله . و- وفي القانون السن التي إذا بلغها المرء استقل بتصرفاته.

⁴⁴⁵ اللقيط: الوليد الذي يوجد ملقى على الطريق لا يعرف أبواه.

عليها، ورأفتها بها ما يزيد مني همّاً ويملاً قلبي يأساً، حتى كان يخيل إليّ أنني أذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا الوجود. بيد أنني صبرت على هذا الرجل، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق، إبقاء على نفسي وضناً⁴⁴⁶ بحياتي، أن تغتالها غوائل الدهر.

وكان كلما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه، أشط في ظلمي ولؤم في معاملتي حتى صار يضربني ضرباً مبرحاً، كلما عدت إليه مساء بأقل من المبلغ الذي فرض عليّ تقديمه في كل يوم، ولم أزل أصابره واحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان، حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي، ومصيبة المصاعب فقد حاول أن يسلب من جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها، فلم أرَ أبداً من أن أفر من بين يديه متسللة تحت جناح الظلام من حيث لا يراني.

وما زلت أمشي على غير هدى لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً، حتى أويت إلى هذا الزقاق كما تراني، فهل لك يا سيدي أن تحسن إليّ كما أحسن الله إليك ؟ وأن تبتاع لي رغيفاً من الخبز أتبلغ به، فقد مر بي يومان لم أذق طعاماً ولا شرباً.

⁴⁴⁶ الضنّة: يقال: أخذت الأمر بضنّته: بطراوته لم يتغير.

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهي سلكه فانتثر، ثم أخذ بيدها ومشى بها صامتاً واجماً يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلغ قصره، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله، وابلغها من دهرها ما لم تكن تمنى نفسها الوشل⁴⁴⁷ القليل منه، وما هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجهاً، وأرقهن شمائل⁴⁴⁸، وأكرمهن أخلاقاً، وأكملهن أدباً، لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة، فكان إلى هذا القصر مصيرها.

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي ربين التربية الحديثة التي يسمونها ((التربية العصرية)) ويريدون منها التربية الإفرنجية فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية:

1. الرطانة⁴⁴⁹ الأعجمية⁴⁵⁰ حتى مع خادمها الزنجي⁴⁵¹ وكلبها الرومي.

⁴⁴⁷ الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره وقيل : لا يكون ذلك إلا من أعلى الجبل. ويقال: ما أصاب إلا وشلاً من الدنيا- والقليل من الدمع. الجمع أوشال.

⁴⁴⁸ الشِّمال: الخُلُق. الجمع شمائل.

⁴⁴⁹ رَطَنَ الأعجمي- رطانة: تكلم بلغته، وفلانٌ تكلم بالأعجمية. وله رطناً، ورطانة: كلمة بها أو كلمه بكلام لا يفهمه.

⁴⁵⁰ العجم: خلاف العرب الواحد: عجميٌ نطق بالعربية أو لم ينطق.. وعلمٌ على الفرس خاصة.

2. الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة.

3. البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس.

4. الكبرياء والعظمة، واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها.

5. الأثرة، وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً، وحتى أنها لا تستطيع أن تسمع

وصفاً من أوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد أصبحت تقاسمها قلب أبيها وقلوب زائراتها من النساء بما

وهبها الله من جمال في الخلق، وحلاوة في الطبع، وعذوبة في النفس، فأضمرت لها في

قلبها من البغض والموجدة ما يضره دائماً أمثالها من اللواتي ربين تربيتهن، ونهجن في

الحياة منهجها فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها، وتغري بتبكيتهن وتأنبيهن والفتاة لا تبالي

بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها وذهاباً بنفسها عن النزول إلى منزلة من

يغضب لمثل هذه الهنات، حتى حدثت ذات يوم المحادثة الآتية:

⁴⁵¹ الزنج: جيل من السودان يتميز بالجلد الأسود والشعر الجعد والشفة الغليظة والأنف الأفطس يسكن حول خط الاستواء وتمتد بلادهم من المغرب إلى الحبشة وبعض بلادهم على نيل مصر. ويطلق الآن على بعض السلالات المنحدرة من القبائل الإفريقية التي استوطنت.

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي، فبينما هو صاعد في السلم إذ عثر برقعة⁴⁵² ملقاة، فتناولها وقرأ فيها هذه الكلمة.

سيدي: "أنا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو"⁴⁵³ المعهودة".
(حبيلك))

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت به الأرض الفضاء، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقياً فيه، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألم بنفسه من الحزن والقلق فقال: لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقطة، ومن الظلم أن أتعجل باتهام ابنتي قبل أن أقف على الحقيقة، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة فرجع أدراجه، وما زال يترقى في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى شجرة اللقاء فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه وما أضمر له الغيب في طياته.

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة، بل رسالة السيدة الشريفة، وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها أمام مرآتها تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بموقف اللقاء، كانت الأولى نائمة في غرفتها نوماً هادئاً

⁴⁵² الرقعة: ما يرقع به الخرق أو القطع. يقال: صاحب كالرقعة في الثوب إن لم تكن منه شائته، فاطلبه مشاكلاً. وقطعة من الورق أو الجلد تكتب.

⁴⁵³ السرو: جنس شجر حرجي للتزيين من فصيلة الصنوبريات.

مطمئناً لا تزعجه زورة الطيف، ولا تروعه أحلام الشباب، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء، وعرفت أن سيدها سيقف على سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانها زمناً طويلاً، وأنه لابد قاتل نفسه في ذلك الموقف حزناً ويأساً، فعناها من أمره ما عناها، ثم أطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هذه النازلة، وتتطلب المخرج منها، ثم رفعت رأسها وقد قررت في نفسها أمراً.

نزلت مسرعة من سلم القصر فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة إليها وقالت لها: ماذا تريدان مني؟ أتتجسسين عليّ، قالت لها: لا يا سيدتي... وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها فسقط في يدها، وعلمت أن أباها قد وقف على سرها، فقالت لها: لا تزعجي نفسك فإن أباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي إلى غرفتك، وسأذهب إلى الموعد مكانك، حتى إذا رأيته هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في أمره.

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة، وهنالك برز الرجل من مكمته، واقترب منها حتى عرفها، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته، ثم قال لها: أيتها الفتاة: إني أحسنت إليك،

واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأتِ إليَّ بما فعلت حتى كدت الليلة أهلك حزناً
وكمداً⁴⁵⁴، وألصق بابنتي ذنبك وأحمل عليها عارك فأخرجني من منزلي، فاللثيم ليس أهلاً
للإحسان.

فخرجت خائبة تتعثر في أذيالها، حتى وصلت إلى شاطئ النهر، وهنالك أخرجت مذكراتها
من محفظتها، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها :

((أحمد الله أني قدرت على مكافأة الرجل الذي أحسن إليَّ بستر عاره، وإزالة همه وحزنه)).

ثم ألقى بنفسها في النهر وما هي إلا دورة أو دورتان حتى افترق ذلك الصديقان الوفيان
جسمها وروحها، فطفا منهما ما طفا، ورسب ما رسب.

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها، وعادوا بها إلى
منزل سيدها، فبكاهها بكاءً كثيراً وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها، ثم أمر
بدفنها ولم يبق في يده من آثاره غير حقيبتها.

مرت الأيام تلو الأيام وجاءت الحوادث إثر الحوادث، وظهر للرجل
من أخلاق ابنته وطباعها، وتهتكها واستهتارها، ما لم يكن يعرفه من
قبل، حتى ضاق بأمرها ذرعاً، وجلس في غرفته في إحدى الليالي

⁴⁵⁴ كمد الشيء - كمدًا: تغير لونه - والرجل : كتم حزنه أو حزن حزناً شديداً فهو كامد.

يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه⁴⁵⁵ ورزاياه، ثم ألم به الضجر فقام إلى صندوقه يفتش عن شيء يتلهى به، فعثر بتلك الحقيبة ولم يكن قد فتحها قبل اليوم، فإنه ليقراً إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي كتبها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشياً عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت.

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذي⁴⁵⁶ هذيان المحموم، ولبث على هذه الحال بضعة أشهر، يمرض ثم يبيل، ثم يمرض ثم يبيل، حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض إلا بانقضاء أجله.

فيا أيُّها الوالد المجهول، الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا الوجود الزاخر، أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقي شقاءه وآلامه مالا قبل لها باحتماله ؟

ويا أيُّها الآباء العظماء إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذه المدينة الغريبة تتولى شأنهن، وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من جنوبكم⁴⁵⁷ قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة⁴⁵⁸ ، حتى

⁴⁵⁵ الخطب: الحال والشأن- والأمر الشديد يكثر فيه التخاطب الجمع خطوبٌ .

⁴⁵⁶ هذي فلان- هذياً، وهذياناً: تكلم بغير معقول لمرض أو غيره فهو هاذاً وهذاءً.

⁴⁵⁷ تقدم بيان المعنى.

⁴⁵⁸ الأنفة: العزة والحمية.

إذا رزأكم الدهر فيهن، وفجعكم في أعراضهن وقفتم أمام ذلك المشهد هادئين مطمئنين، لا تتعذبون ولا تتألمون.

ويا أيُّها الناس جميعاً: لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ولا تفرقوا بين تربية الأكوخ وتربية القصور، ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء، فقد علمتم ما أضمر الدهر في طيات أحداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء.

التوبة

قال الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في (النية): " من وضع نفسه مواضع التهمة، فلا يلومنَّ منْ أساء به الظَّنْ".

علم فلان، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو، وقاضياً من قضاة المحاكم، أن المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها، فكررها أخرى فبلغت منه فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا وقد ختمت روايتهما بما تختتم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود.

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جنبيها همماً يضطرم في فؤادها وجنيناً يضطرب في أحشائها، وقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل، أما

الثاني فسر مذاع، وحديث مشاع إن اتسعت له الصدور، لا تتسع له البطون، وإن ضن به اليوم لا يضمن به الغد.

ذلك ما أسهر ليلها وأقضى مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها بداً من الفرار بنفسها والنجاة بحياتها، فعمدت إلى ليلة من الليالي السوداء فلبتها، وتلفتت بردائها، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود فما زالت أمواجها تتراعى بها حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر، فإذا هي في غرفة صغيرة في أحد المنازل البالية، في بعض الأحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب.

كان لها تحنو عليها، وتفتقد شأنها، وتجزع لجزعها، وتبكي لبكائها ففارقته، وكان لها أب لا هم له في حياته إلا أن يراها سعيدة في آمالها مغتبطة بعيشها، فهجرت منزله، وكان لها خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها ! فأصبحت لا تسامر غير الوحدة، ولا تساهر غير الوحشة، وكان لها شرف يؤنسها ويملاً قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة وافتخاراً... ففقدته وكان لها أمل في زواج سعيد من زوج محبوب فرأتها الأيام في أمليها.

ذلك ما كانت تناجي نفسها به، صباحها ومساءها بكورها⁴⁵⁹ وأصائلها⁴⁶⁰ فإذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب أحزانها علمت

⁴⁵⁹ البكرة: أول النهار إلى طلوع الشمس.

⁴⁶⁰ الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها.

أنه ذلك الفتى الذي وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها، ولم يفِ بعهده لها، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير.

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها، ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة⁴⁶¹ نار تتقد بين جنبها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى لأنه قتلها، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين.

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض⁴⁶²، فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها أملت بشأنها فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات، ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد.. وتعاني من صروف دهرها ما تعاني.

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قرباً إلى نفسها.. فجلست ذات ليلة، وقد وضعت طفلتها النائمة على صدرها وأسندت رأسها إلى كفها وظلت تقول:

ليت أُمي لم تلدني، وليتني لم أكن شيئاً.

لولا وجودي ما سعدت، ولولا سعادي ما شقيت، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي.

⁴⁶¹ الجذوة: الجمرة الملتبته. الجمع جذأ وجذاء وقد تقدم بيان المعنى.

⁴⁶² المخاض: وجع الولادة، وهو الطلق.

لقد كان لي قبل اليوم سبيل إلى النجاة من هذه الحياة أما اليوم وقد أصبحت أماً فلا

سبيل. أأقتل نفسي فأقتل طفلي؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة؟

لا أحسب أن الموت تاركه حتى ذهب بي إلى قبري فماذا يكون حال طفلي من بعدي؟

إنها ستعيش من بعدي وتشقى في الحياة شقائي، لا لذنب جنته ولا لجريمة أكرمتها،

سوى أنني أمها هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومي حينما تسمعين

قصتي وتسمعين شكاتي؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلالي إلا قليل سأبيعه كما بعت سابقه، فماذا يكون شأني

وشأنك بعد اليوم؟

محال أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي، لأنه لم يبق لي مما يعزيني عن شقاء العيش

وبلائه، إلا أن أهلي لا يعرفون شيئاً عن جرميتي، فهم سيكونني كما سيكون موتاهم الأعزاء

ولا سيكونوا مما لي خير لي ولهم من أن يكونوا حيائي.

وكذلك ظلت تلك البائسة المسكينة تحدث نفسها تارة، وطفلتها أخرى بمثل هذا

الحديث المحزن الأليم، حتى غلبها صبرها على أمرها، فأرسلت من جفنيها قطرات حارة

من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء العاجزون، ويقدر عليه القانطون اليائسون.

دارت الأيام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها، وما يحمل بدنها، وما تشتمل عليه غرفتها من حلي وثياب، وأثاث ورياشي، ولم يبق لها إلا قميصها الخلق وملأيتها وبرقعها، ولم يبق لطفلتها إلا أسمال باليات تنم عن جسمها نائمة الوجه عن السرية فكانت تقضي ليلها شر قضاء حتى إذا طار غراب الظلام عن مجثمه أسبلت برقعها على وجهها، واتزرت بمنزرها، وأنشأت تطوف شوارع المدينة، وتقطع طرقها لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها، وهمها لا يزال يسايرها ويترسم مواقع أقدامها.

وأحسب أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى دخلت غرفتها، فوغلت عليها، وسألتها ما خطبها؟ فأنست الفتاة عند رؤيتها وكذا يأنس المصدور بنفثاته والبائس بشكاته، فصرحت لها بسرها وألقت إليها بخبيئة صدرها ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها، ولا حادثاً من حوادث بؤسها لم تحدثها به، فعرفت الفاجرة محتتها ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم⁴⁶³ وجهها جولان الراح⁴⁶⁴ في زجاجتها، وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت غنى الدهر، وسعادة العمر، وما هو إلا أن أرسلت إليها في بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها، حتى

⁴⁶³ تقدم بيان المعنى

⁴⁶⁴ الراح: الارتياح. والخمر ومن الأيام: الشديد الريح. ويقال: ليلة راحة.

غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها وما هي إلا عشيّة أو ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا مثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد عيشاً أشقى من عيشها الأول في منزلها القديم لأنها ما كانت لتستطيع أن تصل إلى لقمتهـا- وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها، وأحرقت دماغها بالسهر وأحشاءها بالشراب، وصبرت على كل من يسومه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم، على اختلاف طبائعهم، وتنوّع أجلاقهم⁴⁶⁵، لأنها لم ترَ بدءاً من ذلك، فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلاً.

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان الأمر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن كل من سار في الطريق التي سارت فيها، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه فساق إليها ذئباً من ذئاب الرجال كان ينقم عليها شأناً من شؤون شهواته ولذاته، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاها عندها، ورفع أمرها إلى القضاء، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسننها وبهائها حتى أدانها.

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقّت إلى المحكمة وفي يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها، فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها

⁴⁶⁵ الجلاقة: يقال: ما عليه جُلاقة لحم: أي شيء منه.

بما يشاء حتى أتى دور الفتاة، فما وقفت بين يديه، ووقع بصرها عليه حتى دهشت عن نفسها وألم بها من الحيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها، ذلك أنها عرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعلّة بلائها، فنظرت إليه نظرة شزراء⁴⁶⁶، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى⁴⁶⁷ بها المكان دويّاً وقالت:

رويدك⁴⁶⁸ يا مولاي القاضي ليس لك أن تكون قاضياً في قضيتي! فكلانا سارق وكلانا خائن، والخائن لا يقضي على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضياً بين اللصوص. فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجرأة العجيبة، وهم أن يدعوا الشرطي لإخراجها فحسرت قناعها عن وجهها، فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شيء فشعر بالردة تتمشى في أعضائه، وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت، وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت: أنا سارقة المال، وأنت سارق العرض⁴⁶⁹ والعرض أثنى من المال، فأنت أكبر مني جناية⁴⁷⁰، وأعظم جرماً.

⁴⁶⁶ الشزر: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة. يقال: نظر إليه شزراً.

⁴⁶⁷ دوى الرعد: صوت.

⁴⁶⁸ الرويد: على الترخيم، تقول: رويداً مهلاً.

⁴⁶⁹ العرض: البدن والنفس.

⁴⁷⁰ تقدم بيان المعنى.

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع أن يعزي نفسه عنه باسترداده أو الاعتياض عنه، أما الفتاة التي سرقت عرضها فلا عزاء لها، لأنَّ العرض الذاهب لا يعود.

لولاك ما سُرقت وما وصلت إلى ما إليه وصلت، فاترك كرسيك لغيرك، وقف بجانبني ليحكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها، وأنا المسخرة فيها. إن الشريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة، ثم تأتي بنا إلى هذا المكان فتقف أحداً في أشرف المواقف وتقف الآخر في أدناها شريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول أو زمام غير مغتصب .

رأيتك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحميني فقلت: يا للعجب كم تكذب العناوين، وكم تخدع الألقاب، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء، وجهالة جهلاء!!

بخ⁴⁷¹ لأؤلئك الذين منحوك هذه الشهادة، شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب ومرحى ومرحى لأؤلئك الذين أقعدوك هذا

⁴⁷¹ بَخْ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالثناء أو المدح أو الفخر، تقول: بخ، وبخ.

المقعد ووضعا بين يديك هذا القانون، وأوقفوا أمامك هذا الشرطي يأتمر بأمرك وينزل على حكمك.

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوساً ليست بأقل من نفوسنا شراً، ولا أبحث منها مذهباً، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا في العناوين والألقاب، والشمائل والأزياء.

أتيت بي إلى هنا لتحكم عليّ بالسجن كأن لم يكفك ما أسلفت إليّ من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلا حق لذلك السابق.

ألم أحسن إليك ساعة من ساعات السرور فترعاها، أأنت إنساناً ذا شعور وإحساس فترثي لشقائي وبلائي؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمتُّ بها إليك فوسيلتي عندك ابنتك هذه فهي الصلة الباقية بيني وبينك.

فرفع القاضي رأسه ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة رحمة وإشفاق وقد قرر في نفسه ألا بد له من أن ينصف تلك البائسة ويتنصف لها من نفسه، غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً فأعلن أن المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها وأن لابد من إحالتها على الطبيب. فصدق الناس قوله، ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه، وقلب غير قلبه، وما هي إلا أيام قلائل حتى استقال من منصبه بحجة المرض، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته واستخلص أمها من قراراتها

وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما فيه أحد. فتزوج منها وأنس بعشرتها، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة أن أول عليه إذا ذكرتها لذكرتها، ولا يزال حتى اليوم⁴⁷² يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية، وأنواع الكرامة حتى نسيا ما فات، ولم يبق أمامها إلا ما هو آتٍ.

الوفاء

قال أفلاطون في (الإحسان والمعروف) : "إحسانك إلى الحرّ يحركه على المكافأة، وإحسانك على الخسيس يحركه إلى معادة المسألة".

يا صاحب النظرات:

تزوجت منذ سنة من زوجة صالحة طيبة القلب والسريرة فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان، وقد عرض لها في هذه الأيام رمد⁴⁷³ في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء، وأصبحت أعمى بجانبها، وقد بدا إليّ أن أطلقها وأتزوج من غيرها، فماذا ترى ؟

⁴⁷² بزمان المنفلوطي، وليس بزمان المبدأ.

⁴⁷³ رمد - رمدًا: والعين رمدًا: هاجت وانتفخت.

(إنسان)

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ: لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين وجرم الغادرين وكن اليوم
أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم، لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من
المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين.

لا تقل أنها عمياء فلا خير لي فيها، ولا غبطة لي بها، فإنك ستجد بين جنبيك من لذة
المروءة والإحسان والوجود والإيثار ما يحسدك عليه الناعمون بالهور الحسان، في مقاصير
الجنان.

اجلس إليها صباحك ومساءك وحادثها محادثة الصديق صديقه، بل الزوج زوجته، وتلطف
بها جهدك وروح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها: لا تجزعي ولا
تحزني؟ فإنما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين.

أعيذك أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بالله ورحمته، والعهد وزمامه، ألا تجعل لهذا خاطر السيئ -
خاطر الطلاق والفراق سبيلاً إلى نفسك، فإنها لم تسيء إليك فتسيء إليها، ولم تنقض
عهدك فتنتقض عهدها، فإن كنت لابد ثائراً لنفسك فأتار من القدر إن استطعت إليه
سبيلاً.

إن عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه،
ويعتدي عليه.

إن لم يكن احتفاظك بزوجتك وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه، فليكن إحساناً
تحاسبك الإنسانية فيه.

إنك قد خسرت بصرها ولكنك ستريح قلبها، وحب الإنسان من لذة العيش وهناءته في
هذه الحياة قلب يخفق بحبه، ولسان يهتف بذكره.

إنها أسعدتك برهة من الزمان فليخفق قلبك رحمة بها، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها.
لا أحسب أنها كانت تاركتك أو غادرتك بك لو أن هذا السهم الذي أصابها من دونها
فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضيلة الصدق والوفاء.
إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها ؟ وأي موطن من المواطن هياته لمقامها ؟ وماذا أعددت
لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها ؟ وتأنس بها في وحشتها ووحدتها ؟

كيف يهنأ لك عيش، أو يغمض لك جفن، إذا أظلك الليل فذكرتها وذكرتها أنها تقاسي في
وحدتها من الوحشة مالا قبل لها باحتماله وأنها ربما طلبت جرعة⁴⁷⁴ ماء تجد من يقدمها
إليها، أو كسرة⁴⁷⁵ خبز فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من مضجعتها في سكون الليل

⁴⁷⁴ الجرعة من الماء: حسوة منه ملء الفم: الجمع جرعة.

⁴⁷⁵ الكسرة: القطعة المكسورة من الشيء ومنه الكسرة من الخبز الجمع كسرة.

وهدونه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجاتها فأخطأ تقديرها فصدمها الجدار في

جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها ؟

أيُّها الإنسان إن لم تكن عادلاً ولا وفيّاً ولا محسناً فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لا بد

أنه سيساورك يفت في عضدك⁴⁷⁶ ويزعجك من مرقدك فإن لم تكن هذا ولا ذاك، فغيرك

أخاطب لأنني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان.

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفياهم تزوج امرأة حسناء

فاغتبط بها برهة من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجتك، ولم

يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر⁴⁷⁷ في

حاشية الأفق، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها، بل كان

يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئاً، فكل يعتب عليها في بعض

الأحيان⁴⁷⁸ في أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا الناظرون الملبصرون، يريد بذلك أن

في روعها أنه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة، وأنه لا يرى شيئاً جديداً طرأ عليها،

⁴⁷⁶ العضد: ما بين المرفق إلى الكتف الجمع أعضاء لا يكسر على غير ذلك.

⁴⁷⁷ الشفق: الشفقة - وحمرة تظهر في الأفق حيث تغرب الشمس وتستمر من الغروب إلى قبيل العشاء تقريباً.

⁴⁷⁸ الأحيان.

رحمة بها وإبقاء على ما كانت تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها.
ولقد قرأتُ جملةً صالحةً من نوادر العرب في آدابهم ومكارم أخلاقهم ورقة شعورهم
ولطف وجدانهم فلم أرَ بينها نادرة أوقع في النفس ولا أجمل أثراً في القلب، من قول أبي
عبيدة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية، وكان كفيف البصر اختلف إلى القاضي
أحمد بن أبي داؤد أربعين عاماً فما سمعته مرة يقول لغلامه عن تشييعي، خذ بيده يا
غلام، بل يقول اخرج معه يا غلام.

فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب ما سجل لأحمد بن أبي داؤد
في صفحات التاريخ فلا تطلق زوجتك، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها، وإن
أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش، فاعلم أنه ما من لذة يتمتع بها
الإنسان في حياته إلا ويشوبها بها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة البر والإحسان.

على سرير الموت

قال نابليون في (الحب): "الفرار هو الانتصار الوحيد في الحب".

مررت يوماً من الأيام على باب منزل صغير في أحد الأزقة الضيقة، فرأيت حوله مجمعاً حافلاً
تصطك فيه الأقدام بالأقدام. وتمتزج منه الأنفاس بالأنفاس، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة
وسمعت قائلاً يقول: ((قبح الله الانتحار)) وآخر يقول: ((أحسبه شاباً غريباً لأني لم أرَ عيناً
تدمع عليه)) فعلمت أن هناك شاباً منتحراً، وإن هذا الحادث سبب هذا الاجتماع.

ولم أقنع بالإجمال فأحببت معرفة التفصيل فحاولت الدخول على المنزل فما استطعت
إلى ذلك سبيلاً فترثت حتى لمحت رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فدخلت معه وهناك
رأيت سرير الموت فتى في نحو العشرين من عمره، رقيق الجسم، أصفر اللون، لم تستطع
يد الموت أن تمحو كل آثار جماله، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي
يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة.

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه، واهتم الطبيب بجثته
ليعرف علة موته، أما أنا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون أفكر
في مصيبتيه، وأنذب⁴⁷⁹ شبابه وجماله، فلمحت حول سريره أوراقاً

⁴⁷⁹ ندب فلاناً إلى الأمر - ندباً: دعا - والميت: عدد محاسنه.

منثورة فجمعتها ووضعها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما أفعل
علني أجد فيها عبرة من العبر.

وما هي إلا ساعة حتى قرر الطبيب أنه منتحر بشرب مادة الزرنيخ⁴⁸⁰ وقرر الضابط نقل جثته
إلى المستشفى، فنقلت الجثة، وانفض الجمع المزدهم ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئاً.
خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق، تناول كأس الحب بيده،
فارتشف منها الرشفة⁴⁸¹ الأولى فوجدها حلوة المذاق، فألصق الكأس بفمه، واستمر
يشرب لا يرفعها، ولا يشعر بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الأخيرة،
فإذا هي السم النافع الذي قتله وذهب بحياته.

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه، ثم طويتها وألقيت بها بين أوراق
وظلت على ذلك أعواماً طوالاً.

وبينما أنا أقلب أوراق ليلى أمس إذ عثرت بها في سفت⁴⁸² صغير، قد
اصفر لونه لتقادم العهد عليه، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية،

⁴⁸⁰ الزرنيخ: عنصر شبيه بالفلزات، له بريق الصلب ولونه، ومركباته سامة، يستخدم في الطب وفي قتل الحشرات.

⁴⁸¹ تقدم بيان المعنى.

⁴⁸² السفت: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها. الجمع أسفاط.

فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي، وتخيلت أنها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر.

ثم عدت إلى نفسي فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها، فرأيت قلب العاشق مرسوماً فيها رسماً صحيحاً في حالتي سعادته وشقائه، وهأنذا أنشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل سبيل الحب القاتل:

(1)

رأيتها فأحببتها، وما كنت أعرف الحب من قبلها، كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة، لها من الشمس نورها وجمالها، وليس لها منها حرارتها ولذتها.

كنتُ أشعر قبل اليوم كأنَّ قلبي في صحراء هذه الحياة وحيد موحد لا يعرف القلوب أو يعرفها ثم ينكرها، فلما أحببت رأيت بجانبه قلباً يؤنسه ويزيل وحشته، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعاً ما خالطها حزن ولا مسها ألم. كنتُ أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها غير أنني كنتُ أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة، والفضة والسلطة، والجاه، والشهرة، والصيت فلما أحببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير سعادة الحب.

وأيقنت أن الناس جميعاً إنما يطلبون سعادة الأجسام لا سعادة النفوس فمثلهم كمثلي
الدفين المكفن بالحرير والديباج⁴⁸³، وباطنه مسرح الدود ومرتع⁴⁸⁴ الهوام والحشرات.

(2)

أحببتها قبل أن أعرف عنها شأناً من الشؤون سوى أنها تحبني، فكأنني ما منحتها قلبي
إلا لأنها منحني قلبها، وهو ثمن قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت أحدث
نفسي بها، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأمانى ولا سوانح الأحلام.
عشت دهرًا بين أقوام لا يعنيهـم أمري ولا يهمهم شأني وذقت من آلام الحياة وشقاء
العيش مالا أستطيع أن يحتمله بشر، فسمعتُ من يسألني: كيف حالك ؟ ومن يقول لي:
ما أشد جزعي لمصائبك ؟ ومن يتباكى رحمة بي وإشفاقاً عليّ، ولكني لم أر بجانبى يوماً من
الأيام عيناً تدمع، ولا قلباً يخفق !

رأيتُ من يحب جمالي كما يحب تمثالاً متقن الصنع، ومن يحب مالي كما يحبه في كيسه
أو خزانته ومن يعجب بحديثي إعجابه برواية بديعة، ولكني لم أر في حياتي من يحبني !.

⁴⁸³ تقدم بيان المعنى.

⁴⁸⁴ المرتع: الموضع ترتع فيه الماشية.

أما اليوم فقد وجدت بجانب القلب الذي يخفق لأجلي والعين التي تبكي في سبيلي
والنفس التي تحبني لا لشيء سواي، فقليل لها مني أن أمنحها حياتي فكيف أبخل عليها
بقلبي !

(3)

جلستُ إليها للمرة الأولى فحدثتني نفسي أن أمد يديّ إلى يدها فأضعها على صدري
لأطفئ بها غلتيّ فما لمستها حتى نظرت إليّ نظرة العاتب، وقالت: كن رجلاً في حبك،
واترك الطفولة لغيرك .

إن كنت تحبني لنفسي فما أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني، وإن كنت تحبني
بهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك، وما أصغر نفسك !

أتذرف دمعك، وتسهر ليلك وتذيب حبة قلبك، من أجل عظمة تلمسها أو جلدة تلمسها
؟

أنت شريف في نفسك فكن شريفاً في حبك، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب
غير نفسي.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي وطميت إن لو
عجل إلى أجلي قبل أن يمر هذا الخاطر الناشد في ذهني. ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي،
وما عدت من بعدها إلى مثلها.

الآن عرفتُ مبلغَ عظمتها، وفضل هدايتها ومقدار ما يبلغه الحبُّ الشريف من النفس،
فها أنذا أشعر كأنَّ نفسي مرآةٌ يغشاها الصدأ، وكأنَّ الحبَّ صقل يصفلها فيجلو صفاتها
شيئاً فشيئاً.

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً⁴⁸⁵ وحقدًا، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به
من قبل، لأنَّ الحبَّ ملك على قلبي، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه.
كنت ضيق الصدر إن مسني ألم، سريع الغضب أن فاتني مآرب، فأصبحت فسيح رقعة
الحلم لا يستفزني غضب أو لا يخرجني محرج لأني قنعت بسعادة الحب، فلم أحفل
بعدها بشيء سواها.

كنتُ شديد القسوة متحجر القلب لا أعطف على بائس، ولا أحنو على ضعيف،
فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ولا تصيبني، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن
كل محزون، لأنَّ الحبَّ أشرق في قلبي فملأه نوراً، فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً
بينه وبين القلوب.

وجملة القول إنني كنت وحشاً ضارياً أعيى العالمين ورياحته وتدليله فصرت بين يدي
الحب الشريف إنساناً شريفاً وملكاً كريماً.

⁴⁸⁵ الضغن: الحقد الشديد.

خرجت بها في الليل إلى ضفة النهر وكان الماء رائقاً والسماء صافية. وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلط علينا الأمر حتى ما نفرق بين الأصل والمرأة ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء، فمشينا طويلاً لا ينبس أحداً بكلمة، وكأن سكون الليل قد سرى إلى أفئدتنا⁴⁸⁶ وملأ ما بين جوانحننا، فأمسكنا عن الحديث هيبة وإجلالاً.

وكنت أشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي وصفاء في نفسي حتى كان يخيل إليّ أني لو شئت أن أطيّر لطرت بغير جناح وأن في استطاعتي أن اخترق بنظري حجب السماء وأنفذ إلى الملاء الأعلى⁴⁸⁷ فأرى هنالك ما هو محبوب عن نظر الناس أجمعين، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فلا يهتدي إلى مغربه، وأن يختبئ الليل في برّده⁴⁸⁸ فلا يعثر به فجره، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام. فالتفت إليها وسألتها :

هل تشعرين بالسعادة التي أشعر بها؟

⁴⁸⁶ الفؤاد : القلب. ويقال هو فارغ الفؤاد: لا همّ عنده ولا حزن، أو سيء الحال، الجمع أفئدة.

⁴⁸⁷ الملاء: الجماعة- وأشرف القوم وسرائهم. والجمع أملاء. ويقال: ما كان هذا الأمر عن ملامنا: عن مشاورة، والملاء الأعلى: الملائكة.

⁴⁸⁸ البردة: كساء مخطط يلتحف به. الجمع بردّ.

قالت: لا، لأنني أعرف من شؤون الأيام وأحوالها غير ما تعرف، ولأنني أنظر إلى الدنيا بالعين

التي تنظر بها إليها !

أنت سعيد بالأمل وأنا شقية بالحقيقة الواقعة. إنك سعيد لأنك تظن أن سعادتك دائمة

لا انقطاع لها، وأنا شقية لأنني أتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها.

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء، وأن تحول بين الأرض ودورتها، وأن

تمنع الساكن أن يتحرك، والمتحرك أن يسكن، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقائها.

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلاً فرأيت مدامعها تنحدر على خديها

بيضاء صافية كاللؤلؤ الممكنون فبكيت لبكائها، وقلت لِمَ تبكين ؟

قالت: خوف الفراق، قلت: فراق الحياة أو فراق الموت ؟

قالت: أما فراق الحياة فإنني لا أخافه. لأنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تحول بيني

وبينك، وإنما أخاف فراق الموت، لأنه الفراق الذي لا حيلة لي فيه.. ولا منتدح عنه، قلت:

هل لك أن نتعاهد على أن نعيش معاً، وموت معاً، قالت: ذلك ما يهون عليّ ألمي،

فتعاهدنا، ثم رجعنا أدراجنا، والليل يشمر أذياله للفرار من النهار، ثم افترقنا على ميعاد

وذهب كل منا لسبيله.

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الإنسان ؟ ألا يستطيع أن

يستقيه كأساً واحدة لا يخالطها كدر ولا يمازجها شقاء؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتاً فلا يذيقه من كأسها قطرة واحدة ما يريد أن

يمنحه اليوم ليسلبه غداً ؟

إن الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ؟ ولكنه يعجز عن احتمال السعادة

المنقطعة.

يقولون: إن الأمل حياة الإنسان وما قتل الإنسان وفرق شمل حياته إلا الأمل.

ليتني ما سعدت. لأني ما شقيت إلا بسعادي، وليتني ما أملت، لأنَّ اليأس القاتل ما

جاءني إلا من طريق الأمل الباطل.

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي، وأشعة آمالي، وينبوع سعادي وهنائي.

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء، فمات بموتها كل حبي في هذا الوجود.

أرى الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وأرى الطيور صامتة لا تغرد، والغصون ساكنة لا

تتحرك، وأرى النجوم آفلة، والأزهار ذابلة، والطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلأأ

جمالها، وأرى الدنيا كأنها عادت إلى عهدها الأول لا يسكنها إنسان ولا يخطر بها حيوان.

وكانني فيها أدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته.

أيُّها الدهر الغادر إن غلبتني عليها فإنك لن تستطيع أن تغلبني عن نفسي، لك أن تخرج

من الدنيا من تشاء، ولكن ليس لك أن ترد إليها من تخرج منها.

ويا أيتها النفس الهائمة في سمائها، لا تجزعي ولا تعجلي، فو الله لأفين بعهدك ولأذهبن

عما قليل وحشتك ليكونن عهدها في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا فما تعارفنا في العالم

الأول إلا بأرواحنا فلنكن كذلك في العالم الثاني.

قصة:

قال شيخ من أهل الشام: صحتني شاب في بعض أسفاري فكنْتُ كثيراً ما أسمعُه ينشد

هذه الأبيات:

ألا إغما التقوى ركائب⁴⁸⁹ أدلجت⁴⁹⁰ وأدركت الساري⁴⁹¹ بليلٍ قلم ينم

وفي صحبة التقوى غناء⁴⁹² وثروة⁴⁹³ وفي صحبة الأهواء⁴⁹⁴ ذلٌ⁴⁹⁵ مع الندم

⁴⁸⁹ الركائب للسر: ما توضع فيه الرجل، وهما ركابان. -والإبل المركوبة، أو الحاملة شيئاً، أو التي يراد الحمل عليها. والركوبة من الدواب: الركوب أو المخصصة للركوب. الجمع ركائب.

⁴⁹⁰ أولج القوم: ساروا من أول الليل.

⁴⁹¹ سري الليل - سرياً وسراية وسرى: مضى وذهب.

فلا تصحب الأهواء واهجر محبتها

وكن لللقى إلفاً وكن في التقى علم

فقلتُ له يوماً: ما هذه الأبيات التي أسمعك كثيراً تنشدها ؟ فضحك، وقال: كيف سألتني

عنها ؟

فقلتُ: لأنِّي أراك كثيراً ما تنشدها، فأردتُ أن أعلم من قولك ما هي؟

قال: لا، ولكنها من قول أخٍ لي، وله حديث⁴⁹⁶ عجيب.

فقلتُ له: حدّثني به.

قال: نعم، كان لي أخٌ، وكنتُ أحبه الحب الذي لا شيء بعده، فمكثنا بذلك حيناً، فلزم

الحديث، والفقه⁴⁹⁷، والأدب، وما رأيتُ فتى مع التقوى أمزح منه.

⁴⁹² غنى فلان غنى وغناءً : كثر ماله فهو غان وغنى- وعن الشيء: لم يحتج إليه- والمكان: يُحمر و- بالمكان أقام فيه. والقوم في ديارهم طال مقامهم فيها. ويقال: غنيت لك مني بالمودّة والبر: أي بقيت- والمرأة بزوجه غنى وغنياناً: استغنت به.

⁴⁹³ الثروة: الكثير من المال والناس. وفي الاقتصاد: الأموال القابلة للتملك والتقويم، والمحدودة الكمية والثروة القومية. مجموعة القوى المنتجة في الدولة.

⁴⁹⁴ تقدم بيان المعنى.

⁴⁹⁵ ذل: دُلّا، وذلة ومذلة: ضعف وهان فهو ذليل، وهي ذليلة. الجمع أذلاء وأذلة وذلال.

⁴⁹⁶ الحديث: كل ما يتحدث به من كلام وخبر، ويقال: الحديث ذو شجون يتذكر به غيره.

⁴⁹⁷ الفقه: الفهم والفتنة، والعلم وغلب في علم الشريعة وفي علم أصول الدين. والفقيه: العالم الفطن، والعالم بأصول الشريعة وأحكامها، واستعمل فيمن يقرأ القرآن ويعلمه. الجمع فقهاء.

قال: ثم تغَيَّرَ عن بعض ما كنتُ أعهدُ منه، من المزاح⁴⁹⁸، والسرور⁴⁹⁹، وحسن الحديث،

فلما رأيتُ ذلكَ منه غمني⁵⁰⁰، وأنكرته، فخلوتُ به يوماً، فقلتُ: يا أخي ما قصتك ؟ وما

لك؟ وما الذي نزل بك ؟

أخبرني فإن كان من أمر الآخرة سررتُ به، وإن كانَ من أمر الدنيا أعتنتك عليه.

قال: والله يا أخي ما هو من أمر الآخرة، ولكنه من أمر الدنيا، ولست أبديه، حتى يبلغ

الأمر آخره ويخرج من يديّ، ولا أستطيع رده.

قال: ولهج⁵⁰¹ بهذه الأبيات:

ألا إنا التقوى ركائب⁵⁰² أدلجت⁵⁰³.

قال: فعظم عليّ ما نزل به، وشغل قلبي، وأخذته شبيهةً بالسهو ويقول في بعض الساعات:

ربّ لا تسلبني ديني، ولا تفتني بعد أن هديتني.

⁴⁹⁸ مزح - مزحاً ومزاحاً: دعب وهزل مباسطاً مُتَلَطِّفاً.

⁴⁹⁹ السرور: ارتياح في القلب عند حصول نفع أو توقعه أو اندفاع ضرر.

⁵⁰⁰ الغم: الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما. الجمع. غموم. ويوصف به فيقال: يومٌ غمٌّ: ذو حر ويوم

غمٌّ: ذو حزن.

⁵⁰¹ لهج بالأمر - لهجاً: أولع به فتأثر عليه واعتاده فهو لهج ولاهج.

⁵⁰² تم بيان المعنى.

⁵⁰³ تم بيان المعنى.

فقلتُ في نفسي: ما أراه إلا وقد غلبت عليه وسوسة⁵⁰⁴ من الشيطان، فهو يخاف ومكث

بذلك حيناً وما يزداد إلا ضنِّي⁵⁰⁵، وجعل أهله يسألونني فأقول: واللّه، ما علمي به إلا

كعلمكم، ولقد سألتُه عن حاله، فما يخبرني بشيء.

واشتد عليه الأمر، فسقط في الفراش، وكان الناس يعودونه ودخل الأطباء عليه، فبعضهم

يقول: سل⁵⁰⁶، وبعضهم يقول: غمّ، واختلفت في أمره علينا الأقاويل⁵⁰⁷، وكان لا يتكلم

بشيء أكثر من قوله:

ألا إنما التقوى ركائب أدلجت فأدركت الساري كما بليل فلم ينم

قال: ولم يزل به الأمر، حتى غلب⁵⁰⁸ على عقله، وضاق به مكانه، فأدخلناه بيتاً، فكان

يصرخ الليل كله، فإذا ملّ من الصراخ. أنّ كمائين⁵⁰⁹ المدنف⁵¹⁰ من علته⁵¹¹.

⁵⁰⁴ وسوس الشيطان إليه، وله وفي صدره وسوسة وسواساً: حدثه بما لا نفع فيه ولا خير ويقال: وسوست النفس - وتكلم بكلام خفي مختلط لم يبينه واعتزته الوسواس و-همس . يقال: وسوس الصائد وسوست كلابه و- صوت في خفاء.

⁵⁰⁵ الضنى: المرض أو الهزال الشديد و السقيم والمريض الذي قد طال مرضه وقد يوصف به المفرد والمذكر وغيرهما على السواء .

⁵⁰⁶ سلّس - سلساً: ذهب عقله فهو مسلوس .

⁵⁰⁷ القول : الكلام والرأي والمعتقد. الجمع أقوال وأقاويل.

⁵⁰⁸ غلب على الشيء: أخذ منه قهراً.

⁵⁰⁹ صوت المريض.

⁵¹⁰ الدنف: المرض الثقيل. والمريض الذي لزمه المرض الشديد

⁵¹¹ عل الإنسان علة: مرض. فهو معلول.

فأشاروا علينا بتخليته وقالوا: إنكم إن خليتموه تفرج واستراح فخليناه .

فكان إذا أصبح خرج فقعد على باب داره فكلُّ من مرَّ به وسأله: أين تريد ؟

فيقول: أريد موضع كذا وكذا.

فيقول: اذهب محفوظاً، لو كان طريقك على بُغيتنا أودعناك كلاماً.

قال: فمر به بعض إخوانه، فقال: أين تريد ؟

قال: أريد حيث تحب، فهل لك من حاجة ؟

قال: نعم، قال: ما هي ؟

فقال:

وتبته بمطاول الأسقام⁵¹²

تقرأ السلام على الحبيب تحيةً

لما سما متعجلاً بزمام⁵¹⁴

وتقل له إن التقى ذم الهوى⁵¹³

فقال: أفعل إن شاء الله.

⁵¹² سقم- سقماً وسقماً، طال مرضه فهو سقمٌ.(أسقم) فلان: ترادفت عليه الأسقام. والله فلاناً: أمرضه ويقال:

أسقمه العشق وأضناه.

⁵¹³ الهوى: الميل والعشق. ويكون في الخير والشر، وميل النفس إلى الشهوة. الجمع أهواء.

⁵¹⁴ زم- زماً: تقدم في السير.

قال: فمضى فما كان بأسرع من أن رجع، فقال قد بلغت القوم رسالتك، قال: فما قالوا ؟.

قال: قالوا:

لئن كان تقوى الله زمك أن تنل أموراً نهى عن نيلها بحرام

فزنا لنقضي من حديثٍ لبانة⁵¹⁵ وتشفي نفوساً آذنت بسقام

قال: فوثب قائماً، ثم أنشأ يقول:

لأقل من هذا وفيه لذي الهوى شفاءً يسلو الفتى جد وامق

إذا اليأس⁵¹⁶ حل القلب لم ينفع البكا وهل ينفع المعشوق دمه عاشق

قال: ومضى، فقمْتُ خلفه، فقلتُ لأهله، لا يتبعني أحدٌ منكم وتبعته، حتى أتى نزل رحلٍ

من أهل الفضل والرأي والدين وكانت له ابنة من أجمل النساء فوقف على الباب فقال:

فها أنذا قد جئت أشكو صبابتي⁵¹⁷ وأخبركم عما لقيت من الحب

وأظهر تسليماً عليكم لتعلموا⁵¹⁸ بأني وصولٌ ثم ذا منكم حسبي

⁵¹⁵ اللبانة: الحاجة من غير فاقة، ولكن من نهمة. يقال: ما قضيت منه لبانتني : نهمتي. الجمع (لُبَان).

⁵¹⁶ يئس منه: انقطع أمله منه وانتفى طمعه فيه فهو يائس ويؤوس ويئس . والمرأة: عقلت فهي يائسة.

⁵¹⁷ صبا فلان- صبواً، وصبوةٌ: مال إلى اللهو. و- إليه : حنّ وتشوق.

⁵¹⁸ أحسب: قال حسبي و- الشيء كفى ويقال: أحسب الشيء فلاناً، و- فلان : أعطاه أو أطعمه وسقاه حتى قال

حسبي.

قال: فلما فهمت القصة، وخشيت أن يلحظني أحد أو يراه بعض من يعرفه، أو يفهم

قصته، خرجت عليه، فقلت: ما جلوسك على باب القوم، ولم يأذنوا لك؟

قال: بلى، فقلت: كيف، وهم يقولون:

بالله ربك لا تمر بابنا

إنا نخاف مقالة الحساد

ودع التعتب والتذكر أنه

يرويه عنك أجله العوَّاد⁵¹⁹

قال: يا صالح، وقد قالوا هذا ؟ قلت: نعم.

فجعل يهذي، ويقول:

إن كان قد كرهوا زيارة عاشقٍ

فلرب معشوقٍ يزور العاشقا

فلما رجعتُ سألوني عن قصته، فقلت: ما أخطأ الجبان⁵²⁰. ولزم بيته فلم يزل زائل العقل

حتى مات⁵²¹.

⁵¹⁹ جعله يعتاده حتى يصير عادة له.

⁵²⁰ هكذا بالمصدر لعلها التجبن في اصطلاح الأطباء تحول الأنسجة النخرة إلى كتلة محببة متلبكة مُتعجّنة لونها أسمر أو أصفر صغيرة خفيفة تشبه الجبن.

⁵²¹ أنظر التنوخي- من نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، مكتبة ملاك للنشر والتوزيع ، عمان ، 2015م، تحقيق سامر أمين.

غدر المرأة

قال أحد الحكماء في (الدنيا): "إنَّ الدنيا تجودُ لتسلب، وتُعطي لتأخذ، وتجمع لتشتت، وتزرع الأحزان في القلوب بما تفاجأ به من استرداد الموهوب".

يقصون في بعض الأساطير القديمة أن حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه قلبه وعقله، وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءه الحاصرة شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطاً باعتلاقه إلى صائد آخر يعتلقه من بعده، وكان كلما أثبت زوجته سرّه وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم، حنت عليه، وعللته بمعسول الأمانى وأقسمت له بكل محرّجة من الإيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً، فكان يسكن إلى ذلك الوعد سكون الجرح الذرب⁵²² تحت الماء البارد ثم لا يلبث أن يعود إلى هواجسه⁵²³ ووساوسه. حتى مرّ في بعض روحاته إلى منزله في إحدى الليالي المقمرة بمقبرة المدينة.

⁵²² ذرب السيف- ذرباً، وذراية: صار حديداً ماضياً. والجرح: فسد واتسع.

⁵²³ الهاجس: الخاطر الجمع هواجس.

فبدا له أن يدخلها ليروِّح عن نفسه هموم الموت بوقفه بين قبور الموتى وكثيراً ما يتوارى شارب الخمر بالخمَر، ويلذ للجبان⁵²⁴ وهو يرتعد فرقا الإصغاء إلى حديث المردة والجبان، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة أمام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الأبيض مطرز بأسلاك من الذهب، تحركها يمينه ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمراه، ثم أنست به حينما عرفته، فسألها ما شأنها، وما مقامها هنا ؟ ومن هذا الدفين ؟ وما هذا الذي تفعل؟ فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها، فجلس إليها وتناول المروحة منها، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها، وأنه مات منذ ثلاثة أيام، وأنها جالسة من الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد أقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره.

وأن هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحنث بيمين أقسمتها له، أو تخيس بما عاهدته عليه، ثم قالت له: هل لك يا سيدي أن تقبل هذه المروحة هدية مني إليك، وجزاء لك على حسن صنيعك معي؟ فتقبلها منها شاكراً بعد أن هناها بزواجها الجديد! ثم انصرف وليس وراء ما به

⁵²⁴ الجبان: الصحراء - والمقبرة.

من الهم غاية، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان⁵²⁵. يحدث نفسه ويقول: أنه أحبها وأحسن إليها فلما مات جلسْتُ فوق قبره لا لتبكيه، ولا لتذكر عهده، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي أقسمتها له، فكأنها وهي جالسة أمام زوجها الأول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها وتصفف طرتها⁵²⁶ وتلبس حليتها للزفاف إلى غيره.

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ورأى زوجته ماثلة أمامه مرتاعة لمنظره المؤلم المحزن فقال لها:

إن امرأة خائنة غادرة أهدت إليّ هذه المروحة فقبلتها منها إليك. لأنها أداة من أدوات الغدر والخيانة، وأنت أولى بها مني. ثم أنشأ يقص عليها، قصة المرأة حتى أتى عليها، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها إرباً... إرباً⁵²⁷، وأنشأت تسب تلك المرأة وتشتمها، وتبني عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها.

⁵²⁵ النشوان: السكران في أول أمره، وهي نشوى. الجمع نشاوى.

⁵²⁶ الطرة: اسم الشيء المقطوع، وطرف كل شيء وحرفه، وشفير الوادي وغيره، وكفة الثوب ونحوه، وما تطره المرأة من الشعر الموفى على جبهتها وتصففه، وهي القصّة؟

⁵²⁷ أرب: شح وحرص، والشيء أربه: وفره وكمله، والذبيحة. قطعها إرباً، إربا.

ثم قالت: ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك ما دمت حياً؟ وهل تحسب أن امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضىت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟ فقال لها: إنك أقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي، فهل تفين بعهدك؟ قالت: نعم، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر إن أنا فعلت. فاطمأن لقسمها وعاد إلى هدوئه وسكونه.

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى أشرف على الموت، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فذكرت، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسها، فأمرت أن يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله أن تفعل، وأنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادمة وأخبرتها أن فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعوده حينما سمع بخبر مرضه، فلما سمع حديث موته دعر دعر⁵²⁸ شديداً وخرّ في مكانه صعقاً وأنه لا يزال صريعاً⁵²⁹ عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره، فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى يستفيق، ثم

⁵²⁸ الذعر: الخوف والفرع.

⁵²⁹ صرعه - صرعاً ومصرعاً: طرحه على الأرض ويقال: صرعه المنية، وصرعت الريح الزرع.

عادت إلى بكائها ونحيبها، فلما مر الهزيع⁵³⁰ الثاني من الليل دخلت عليه الخادمة مرة أخرى مذعورة مرتاعة، وهي تقول: رحمتك وإحسانك يا سيدتي فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذاباً أليماً وقد حرت في أمره، وما أحسبه إن نحن أغفلنا أمره إلا هالِكاً فأهمها الأمر وقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت في وجهه، فرأت أبعد سطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح الوجود، فخیل إليها أن المصباح الذي أمامها قبس من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير، وأن أئينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنة ترن في جوف الليل البهيم⁵³¹.

فأنساها الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك، وعناها أمره، فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى استفاق ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء. ثم أنشأ يقص عليها تاريخ حياته فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعرفه، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها، وأنه فتى غريب في قومه لا أب له، ولا أم، ولا زوجة، ولا ولد.

⁵³⁰ الهزيع من الليل: نحو الثلث أو الربع الأول منه.

⁵³¹ البَهِيمُ : الأسود . ولیل بهیم : لا ضوء فيه إلى الصباح.

وهنا أطرقت برأسها ساعة طويلة عاجت فيها هواجس النفس ونوازعها ما عاجت، ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده، وقالت له: إنك قد **ثكلت**⁵³² أستاذك وأنا ثكلت زوجي فأصبح همنا واحداً، فهل لك أن تكون عوناً لي وأن أكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً، فألم بخبيئة نفسها فابتسم الحزن والمضض، وقال لها: من لي يا سيدتي أن أظفر بهذه الأمنية العظمى، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليّ عيشي، وأفسد عليّ شأن حياتي، وقد أُنذرتي الطبيب باقتراب ساعة أجلي إن لم تدركني رحمة الله فاطلبي سعادتك عند غيري، فأنتِ من بُناة الحياة، وأنا من أبناء الموت.

فقالت له: إنك ستعيش وسأعالجك ولو كان دواؤك بين سحري⁵³³ ونحري قال: لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فأنا عالم بدوائي وعالم بأنّي لا أجد السبيل إليه.

قالت: وما دواؤك، قال: حدثني طبيبي أن شفائي في أكل دماغ ميت ليومه وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء، فارتعدت وشحب لونها، وأطرقت إطرقة طويلة لا يعلم إلا الله ماذا كانت تحدثها نفسها

⁵³² بمعنى فقدت.

⁵³³ السَّحْرُ: كل أمرٍ يُخْفَى سَبَبُهُ وَيَتَخَيَّلُ على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع .

فيها، ثم رفعت رأسها وقالت: كن مطمئناً فدواؤك لا يعجزني ثم أمرته أن يعود إلى راحته وسكونه، وخرجت من الغرفة متسللة حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها فأخذت منها فأساً قاطعة، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت إلى غرفة المبيت، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريراً⁵³⁴ مزعجاً فجمدت في مكانها رعباً وخوفاً ثم دارت بعينيها حولها فلم تر شيئاً فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده ولم تكد تهوي بها حتى رأت المبيت فاتحاً عينيه ينظر إليها فسقطت الفأس من يدها وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف والخادمة واقفين يتضحكان ففهمت كل شيء.

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها: أليست المروحة في يد تلك المرأة أجمل من هذه الفأس في يدك ؟

أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه؟ فصارت تنظر إليه نظراً غريباً ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها⁵³⁵.

⁵³⁴ صرّ - صريراً: صوّت يقال: صرّ العصفور والجندب، وصر القلم، وصر الباب وصرت الأذن: كان لها طنين.
⁵³⁵ لا يعني أن كل قول أو قصة أو طرفة مذكورة في كتب التراث إنما هي موثوقة من حيث حدودها وحصولها ولكن قيمتها تنبع من كونها مأخوذة من صلب التراث. فكثير مما تطالعنا به كتب التراث موضوع أو مختلق أو منسوب نسبة غير صحيحة. غير أن هذا الأمر لا ينفي عنه قيمته الثقافية والاجتماعية.

(تم بحمد الله)

المصادر والمراجع

- الجوع، أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا - بيروت، دار ابن حزم، ط1، 1997م.

- كتاب المحتضرين، أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان - بيروت، دار ابن حزم، ط1 1996م.

- صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري - ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة، دار ابن الهيثم، ط1، 2004م.

- المدهش، ابن الجوزي - ضبطه وصححه وعلق عليه د- مروان قباني - بيروت ، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ .

- عيون الحكايات، ابن الجوزي - تقديم وتحقيق وتعليق عبد العزيز سيد هاشم - بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.

- كلام الليالي والأيام لابن آدم، أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا - تحقيق محمد خير رمضان يوسف - بيروت، دار ابن حزم، ط1، 1997م. دار الأمين للنشر والتوزيع، ط1، 1999م.

- بحر الدموع، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي - تحقيق إبراهيم باجس - بيروت، دار ابن حزم، ط3، 1998م.

- كتاب المتمنين، أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا - تحقيق محمد خير رمضان يوسف - بيروت، دار ابن حزم، ط 1، 1997م.
- قصر الأمل، أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا - تحقيق محمد خير رمضان يوسف - بيروت، دار ابن حزم، ط 1، 1998م.
- صفة الصفوة، ابن الجوزي - تحقيق محمد محمود اسماعيل - بيروت، دار الخلفاء للنشر والتوزيع، ط 1، 1995م.
- المعجم الوسيط، د- إبراهيم أنيس وآخرون - بيروت، دار احياء التراث العربي، ط 2، بدون تاريخ .
- روائع من قصص الخلفاء - سامر محي الدين أمين - عمان، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط 1، 2004م.
- تهذيب سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الارنؤوط، تهذيب أحمد فايز الحمصي -بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1999م.
- ثمرات الأوراق في المحاضرات، للإمام تقي الدين أبي بكر علي بن محمد بن حجة الحموي القادري الحنفي - تحقيق د- مفيد قمحية - بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1983م.
- فقه السيرة النبوية (مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة)- د- محمد سعيد رمضان البوطي - بيروت، دار الفكر المعاصر ، ط 1، 1991م.

- الفرج بعد الشدة (للوقائع الغريبة والأسرار العجيبة)، أبي علي المحسن بن علي بن

محمد ابن أبي الفهم التنوخي البصري، تحقيق خليل عمران المنصور - بيروت، دار

الكتب العلمية، ط 1، 2001م.

- اسلام بلا مذاهب، د- مصطفى الشكعة، بدون دار نشر، ط 2، 2008م.

- بستان الواعظين ورياض السامعين، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

البغدادي - تحقيق جمال محمد شرف - القاهرة، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع،

2004م.

- عقلاء المجانين - للإمام أبي القاسم الحسن ابن محمد بن حبيب النيسابوري - تحقيق

أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول - بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 2003م.

- معجم البلدان، للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي

الرومي البغدادي - تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي - بيروت، دار احياء التراث

العربي، ط 4، 1988م.

- الصبر والثواب عليه - أبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا - تحقيق محمد خير

رمضان يوسف - بيروت، دار ابن حزم، ط 1، 1997م.

- العقوبات " العقوبات الإلهية للأفراد والجماعات والأمم " - أبي بكر عبد الله بن

محمد ابن أبي الدنيا - تحقيق محمد خير رمضان يوسف - بيروت، دار ابن حزم، ط1،

1996م.

- من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام - د- عبد المنعم فؤاد -

الرياض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان، 2001م.

- صفحات من تاريخ مصر (تاريخ عمرو بن العاص) - د- حسن إبراهيم حسن -

القاهرة، مكتبة مدبولي، 1996م.

- ثلاث رسائل في فضائل معاوية (حلم معاوية لابن أبي الدنيا، فضائل معاوية

للسقطي، شرح عقد أهل الإيمان للأهوازي)- تحقيق د- عصام مصطفى هزامة، د-

يوسف أحمد بني ياسين -أربد، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع،

ط1، 2000م.

- المواعظ والمجالس - لأبي الفرج ابن الجوزي - دراسة وتحقيق وتعليق مجدي محمد

الشهاوي - المنصورة، مكتبة الإيمان، ط1، 1997م.

- أخبار الظراف والمتماجنين - أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي - تحقيق

بسام عبد الوهاب الجابي - بيروت، ط1، 1997م.

- مكارم الأخلاق - الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي - تحقيق بشير محمد عيون - دمشق، مكتبة دار البيان، ط1 2002م.
- كتاب شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق زهير شفيق الكبي - بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1990م.
- المختار من نواذر الأخبار - الشيخ المحدث شمس الدين محمد بن أحمد المقرئ - عمان، مركز سندباد للترجمة والنشر والتوزيع - بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، 1996م.
- 43 قصة من قصص العرب في الكرم والجود - سامر محي الدين أمين - عمان، دار البيت العتيق للنشر والتوزيع، ط1، 2004م.
- قصص الصالحين في الصبر والأخلاق - سامر محي الدين أمين حشيمة - عمان، دار الرواد للنشر والتوزيع، ط1، 2005م.
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة - القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي - تحقيق الدكتور عبد الإله نبهان - دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 2001م.
- نثر الدر- أبي سعد منصور بن الحسين الآبي - تحقيق مظهر الحجري - دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1997م.

- حقائق الأزاهر - ابن عاصم الأندلسي - تحقيق رمزي رامز حسون - بيروت، دار ابن

حزم للنشر والتوزيع، ط1، 2001م.